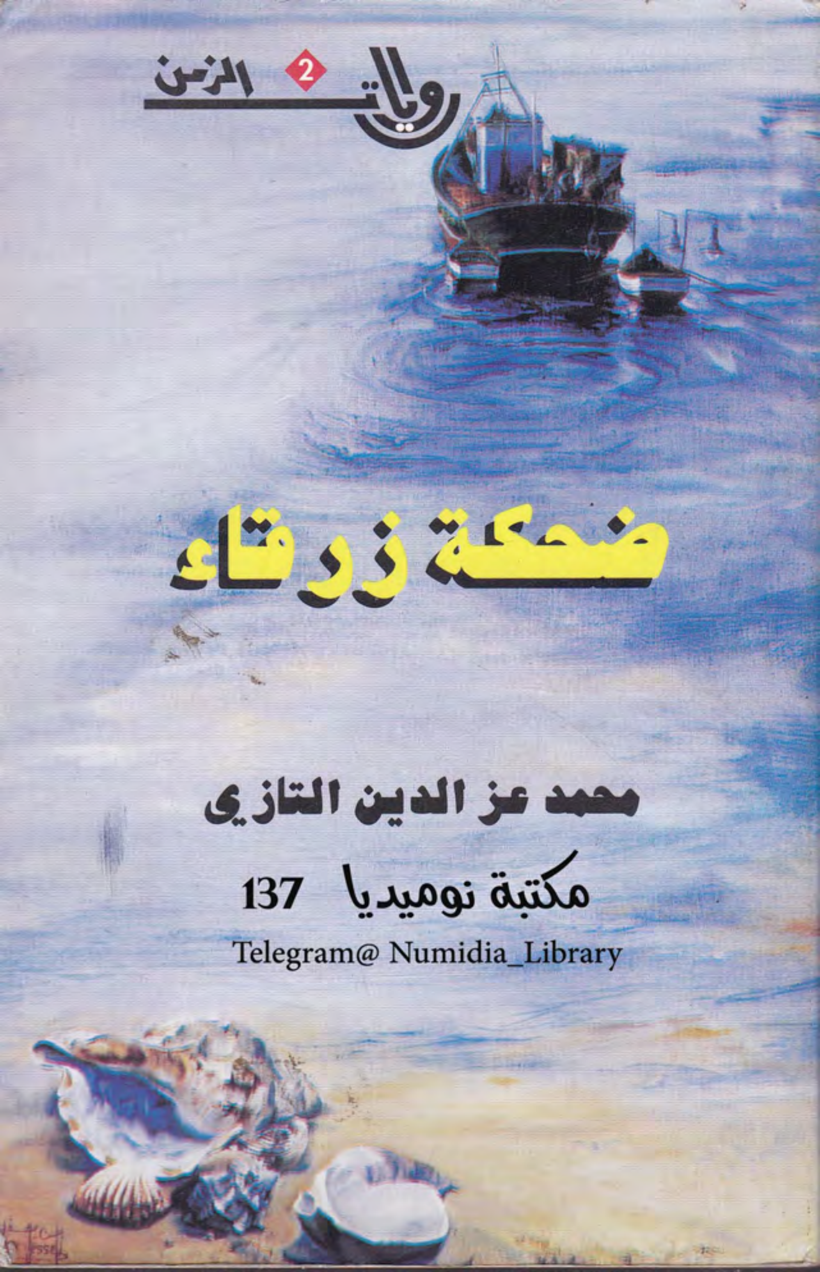
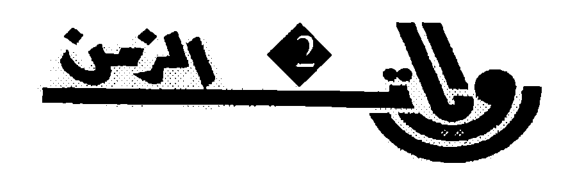

روايات الزمن 2
ضحكة زرقاء
محمد عز الدين التازي
مكتبة نوميديا 137
Telegram@ Numidia_Library



تصدر عن جريدة الزمن

المدير المسؤول : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

المشرف

سعيد يقطين

الإخراج التقني : طاقم الزمن

الإدارة والتحرير : 153، شارع سيدي محمد بن عبدالله رقم 7 ـ العكاري ـ الرباط

الهاتف + الفاكس : 44 98 29 7 212 00

* * *

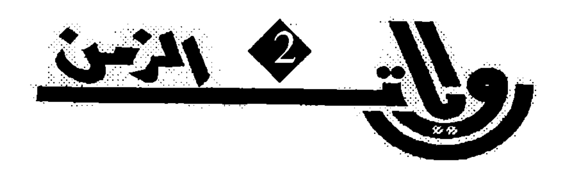
الإيداع القانوني للسلسلة : 99/217

طبع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدارالبيضاء

توزيع : سبريس

الحساب البنكي : جريدة الزمن، البنك التجاري المغربي، وكالة أبي عنان ـ الرباط

رقم الحساب : 072E001182



يوليوز 2000

ضحكة زرقاء

رواية

محمد عز الدين التازي



منشورات الزمن

لا تقل للكأس :
هذا وطن الله
ففي طنجة يبقى الله في محرابه الخلفي
عطشان
ويستأسد قيصر

أحمد المجاطي

"أقول لك أنا ابن ضربان كما سميتني لا حل لي ولاعقد عليك ولا شأن كما أردتني، فهل تعلم يا هذا أنك تتوهم المدن ولاتراها، أو أنك تخلقها من خيال فتراها، أنت المسكون بالجهات وكأن لاجهة لك، وأنت صبي الحكاية وكأن لاحكاية لك، فلك الحكايات كلها، ومدنك ما أزخرها بالطرائف والعجائب، وما أمرها وأقساها وأنت تسويها تمور بالخلائق وتموج بالحباحب، وأراك لايطرق لك جفن ولايستقيم لك وزن وأنت تلمح بالتلميحات وتشير بالإشارات وتسكن الناس والأحوال في المقامات واللغات، تهرف بما لاتعرف، وعذري لك أن مارستانات المدينة قد ضاقت بالحماق فما وجدت لك مكانا في مارستانات، وأنت المؤرق العرقان بعرق بارد، وقلب على كمده صامد، وها أنت تأتي إلى طنجة مجنحا بخيالك، وراميا بسهام كلامك، وهي بين ماء وماء، وعلى أكف صباياها تزاويق حناء، فاجعلها وشما وكحلا وخلا وبقلا، ولايأخذنك التباهي، فما تبنيه لايعرف التناهي، فلا نهاية لبناء ولاصفاء لسماء، وأنت السائر نحو المغارات ووقت التحنان لم يحن، وليل المدينة لم يبن، واقترابك منها لم يرن، كان الله لي ولك وللوراق ولقارئ هذه الأوراق"

ابن ضربان الشرياقي

مطالع

المطلع الأول :

(قليل من بقاء كثير من زوال، وهن ووحم، ألق ليلي وانطفاء نهاري. ويقولون هي طنجة العالية بسواريها وأنا لم أر أي سوار إلا إذا كانت هذه السواري تعلو بالمدينة نحو السماء ولاتنتهي وهي لايراها أحد، ومن يراها يكون طنجاويا وحده، ووحده يستحق أن يدعي أن عروقه المدفوعة بالدماء هي التي تزود تلك السواري بطاقاتها في العلو، سيكون ذلك الرجل واحدا من حمقى المدينة، أما أنا فلا أرى سوى قليل من بقاء وكثير من زوال، بعد أن كانت طنجة تزهو بعالمها في العالم، وما عادت لها سوى أشباح ليال وظلال نهارات وكثير من الحمقى والتائهين والمأفوفين)

محمد الزين

المطلع الثاني :

(لعله الصمم، مدينة صماء، أناس خباياها وتجلياتها سكنوا إلى الظل وأصبحوا يشيرون بالأيدي وهم يضعونها على آذانهم ويرددون : آ!آ شني؟ آش كتقول؟ وماذا يقول الطرشان؟ قل أيها الفتى الطنجاوي إن قمرك راحل وحشيشك قد نفد بعد أن دخنته عن آخره فاستعرت وجه المدينة وو جوه لا أحد، وأقول أنا إنها مدينة الوحم، كل واحد من أناسها يتوحم على ما يريد، قمر نهاري أو شمعة للإضاءة أو ربيع في الخريف، أما أنا فأتوحم على كتاب يخالف كل هذه الكتب المعروضة على الأرصفة)

أحد رواد مقهى فرنسا

المطلع الثالث :

(ندعو الله ونقرأ الأوراد لكي يخلص المعتقلين من سجونهم ليعودوا إلينا بضوء الحق ونصاعة الكلام وجأشهم في رفع الباطل ودرء الفساد وإغلاق الحانات وإعادة بنات الناس إلى بيوتهم والله غفور رحيم، وندعوه ليحرر البلاد والعباد من فساد الحكام وفساد النفس وفساد المال، وأن يعيد الحلال إلى الحلال، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والعادل المستبد هو الطريق إلى تقويم هذه الأوضاع، وقانا الله تعالى من شر أنفسنا ومن شر حكامنا ومن شر الخلق)

شيخ الزاوية

المطلع الرابع :

(فتحت عيني مرة أخرى، ككل يوم، على هذا العصف الطنجاوي، طنجة تعصف بنا ونحن نعصف بها، صعق أرواح أو دبيب نمل أو نظرات أسيانة تهيم على أرصفة المقاهي أو مقام للعابرين؟ هي طنجة تخفي جراحها القديمة الجديدة وتكتنه العذابات والخسران وتضحك ضحكتها الطنجاوية في الميناء ومحطة المسافرين وعلى أرصفة الشوارع. مدينة من إسمنت أو زجاج أو غمام. وما شأن هذا العصف يعصف بالزجاج والغمام والإسمنت، وأي زمن للصبا والجمال في زمن العذابات والقلق والخسران؟ راحت امرأتي من عيني ويدي، رحت أنا إلى قبر حلمت به قبل أن أذهب إليه في شيخوخة شباب ومحن وانهيارات ذاكرة، رحت أنا وبقي الكاتب يدعي أنه قد راح وفي

يده روضه العاطر، لايعرف ما يفعل به هل يقرأه أم يتمثل في الفراش أمزجة البيضاوات والسمراوات والسوداوات، وهو لايتمثل شيئا ربما، فأنا أتوهمه كما أتوهم هذه المدينة، وعصفها بنا أو عصفنا بها ربما كان مجرد وهم من هذه الأوهام، مدينة الأوهام. وأين هو العربي اليعقوبي اليوم، أو مومن السميحي أو وليام بورروز أو بول بولز؟ أشباح عابرة في مقام عابر، كما أنا وهذه المدينة التي لها بقاء العابرين)

مثقف غير عضوي

المطلع الخامس :

(كان هوا، حيط اديال الهوا، تسندت عليه وقلتها والله يلاقلتها، قلتها فواحد النهار كانت فيه الشتا والريح وقلتها وضحكت ومشيت مع شارع فاس ووقفت مع واحد الحيط شي ساعة أو ساعتين، حتى عرفت راه حيط الهوا، حيط الريح، آويلي كنت تنتسند لحيط الهوا والريح وقلتها لراسي، قلت صافي، القضية كملت أنا عارفة آش غدي ندير، اللي ليها ليها وعاود مشيت بقيت تنضحك، وأنا تنقولها لراسي وها الحماق كلهم ماشيين قدامي بحال يلاتيتحركوا بالكويردة الله يبقي الستر. وعاود مشيت وبقيت ماشية حتى لقيت حيط كان حتى هو دالهوا. حيط الريح. هما دايزين وأنا واقفة، واقفة متكية على حيط الريح. مخليته يتكا عليا، وقلتها وضحكت، والله يلاقلتها. لاما قلتهاش. بقات على طرف لساني. لاخلاني حد نقول. بلاش. غير خليني نقولها لراسي.)

حمقاء المدينة

المطلع السادس :

(المطاعم تقيء معداتها على الواجهات الزجاجية، والمطعمون يأكلون من قيئهم)

مطعمي

المطلع السابع :

(والأشباه تكاثروا على المدينة ووجدوا في كنوزها ذهبا للنهب واستعانوا بكلاب رجال السلطة على النهب، وأيهم سوف يستلم؟ كلاب الرجال أم أصحاب الغارات الليلية والنهارية؟ وحالما تغضب طنجة فهي لاتعري مفاتنها لأحد، تصير جثة هامدة في صناديق التبريد بانتظار ألا يمتص دماءها أحد، فطالما تعرت للأجانب وما عادت لها مفاتن تعريها لأحد، بعد أن استباحها الطليان والإنجليز والفرنسيون وما عادت لهم مواخير وحانات في المدينة إلا بما يتوانى مع الوقت، امتصوا دماءها وها دمها معلب، فالغانيات فقدن ذاكرة الليالي المليحة، والمقعدون صاروا ثرثارين وضحايا الحروب العالمية بددوا ثرواتهم وذوو الجنسيات الأجنبية يزورون طنجة كالغرباء، ولم يبق سوى آدميي بني مكادة وسوق البقر يدافعون عن أنفسهم مع الذين تكاثروا على المدينة، والبلديات لا تمنحهم سوى الروائح الكريهة والظلام والحدائق التي صارت مزابل)

عضو مجلس بلدي

المطلع الثامن :

(في هذه المدينة يستلم الإنسان الحقيقة، ويستعيد صفاء العقل ليتغلب على وساوس الحرب ودسائسها ومؤامراتها بعزم. ها أنا

أحمل نياشيني التي لا أضعها على صدري إلا مرة كل عام في الرابع عشر من يوليوز، في احتفالات القنصلية، أشرب خمري وآكل لحم الخنزير في هذه المدينة، ولقد استرحت فيها وأنا قائد لجيش نظامي، كما استراح فيها قادة من جيوش الأعداء، مدينة منحتنا نصيحة واحدة وهي خدمة الأوطان، مهما اختلفت مصالحها، ولما كنت ضابطا غريرا فقد بدت لي هذه النصيحة فجة وتافهة لأن هذه البديهية هي من صميم التربية العسكرية، ولاشأن لها بمدينة حتى وإن كانت عصبا أو خريطة مركزية لكي نؤكد على هذه الحقيقة. إن معاشرتي لطنجة قد برهنت لي على أنني أحتاج إلى أن أتعلم من دروس الحياة، وأنا الآن في السابعة والسبعين، أحمل نياشيني على صدري، ودروس طنجة في تربيتي العسكرية هي ما يشدني إليها بحنين من جاء إليها من بوردو لقضاء ليال للراحة، ولكنها صارت راحة أبدية)

جوان فرانسوا

المطلع التاسع :

(أعطني يدي ياابن جزي. أنا أيها الكلبي لن أستطيع أن أكتب بيدك وقل لمولانا سلطان فاس إن شمس الدين لا يكتب بيد أحد، وإذا ما كنت شيخا مسنا وقد سقطت يدي من جسدي فلا تنس يا ابن جزي أنني من طنجة خرجت فتى يافعا إلى كل رحلاتي وأنا من عاشها ولاقى فيها الأهوال وشاهد فيها العجائب وأنا لاأخط خاتمتها إلا بيدي التي ما عادت تقدر على أن تخط حرفا واحدا ياابن جزي. وإن كان الهنود قد صادروا أوراق رحلاتي ظنا منهم بأنني جاسوس فأين أنا الآن، أفي فاس المحروسة

أم طنجة التي لابد منها إن طال السفر؟ أين أنا الآن؟ أنت موكول لمهمة وتريد أن تبدأ، لاتهمك طنجة التي في قلبي وعيني وطفولتي. اكتب أنا محمد اللواتي، الملقب بشمس الدين، جبت البلاد والوديان والصحاري، ولكن ما أعجبك ياابن جزي الكلبي تكتب بأمر من سلطان فاس رحلتي وكأنك تكتب رحلتك أنت التي لم تر فيها ما رأيت، كأنك الرحالة والكاتب وما أنت سوى كاتب للسلطان أمره بأن أملي عليه ما شاهدت وما رأيت، ولو عاينت ما عاينت، وشاهدت ما شاهدت، لكنت أنت ابن بطوطة، ولرحلت فاس في الصبوات والفلوات، ولما كنت أنا الفتى الطنجاوي الذي عاش ورأى، فسخفا لهذه الرحلة التي قادتني إلى كاتب مولانا السلطان، أنا التقي الورع، صاحب الصبوات، والآن يا ابن جزي أستحلفك بالله أن تكتب عني ما تشاء، فأنا عائد من حاضرة فاس، إلى حضرة طنجة، وليس لي من الوقت ما أضيع)

ابن بطوطة

المطلع العاشر :

(وليس ثمة غير الكمد، كمد مدينة وكمد أناسها الأخيار والأغيار، وليس ثمة سوى اختلاط الليل بالنهار)

سيدي عبد الصادق الغريب



جنون ساميا

أيها الصاحب لماذا تركتني وحيدا؟

أغراسك وتماثيلك ما تزال في مكانها ربما أو أن ساميا قد أزاحتها قليلا من مكانها في الممر أو أخرجتها إلى الشرفة حتى تفسح للعبور.

الأغراس التي كنت قد زرعتها في المرقد فترعرعت بذلك الطفوح والاخضرار البهي، احترقت كما قلت لي، وحالما رأيتني أنظر إلى فراغي بادرت بالقول إنك كنت تود قلب أماكن الأشياء ولكن الأشياء لا ترتاح إلا إلى أماكنها. لا يمكن أن يتحول موقد الحطب إلى مكان لزرع أغراس تطفح بالاخضرار. الديناصورات لا بد أن تتهشم لأن طينها لا يقوى على حمل الشقوق زمنا أكثر. الأحصنة النافرة والشموع والقناديل هي زينة حياة فردانية تزهو فيها العين بما تشاء، ودعك أيها الصاحب من ذلك السرير الذي كنت تصفه بالقبر المشتهى، ففي الغرفة سريران أعزلان لعزلة نمارسها أنا وساميا، وحتى أحلام وأوهام وضحكات ذلك الزمان راحت. الكتب! لم أقرأ كتابا واحدا من أوله إلى آخره منذ سنوات خلت. أقرأ أنصاف أو أرباع الكتب أوبضع وريقات أغادرها غير مقتنع بما فيها، وحتى إن شدتني إليها فقد تحكمت في عادة ألا أنهي قراءة كتاب. بعض الناس يفعلون هذا مع النساء، لا يكملون شيئا مع امرأة ويبدأون العلاقة مع امرأة أخرى يعرفون أنها سوف لن تفضي إلى شيء. بعض الرسامين تصيبهم هذه الآفة فلا يكملون لوحة وينتقلون للعمل في لوحة أخرى لا تكتمل،

وأظن أن هذه الآفة هي آفة رجال السياسة، يعلنون عن برامج ومخططات ومشاريع وسرعان ما يعلنون عن أخرى وسابقاتها لم يظهر لها أي أثر في الوجود. تعرف أنني لا أحب أن أعكر مزاجي أكثر مما هو عكر بمثل هذه الأمور. أرقنا الطنجاوي ما يزال. هل تتذكر السي عبد النبي؟ صار مقعدا وعليك أن تزعجه بتحديقك في الفراغ وسهومك وصمتك حتى يدخل الكلام الأبيض في الكلام الأسود ويأخذ بزمام حكاية كانت على طرف لسانه هي حكاية الطعنة التي ضاعت في الفراغ، حكاية عراب طنجة الذي ما عاد عرابا، ولم يبق له سوى طربوشه الأحمر وعينيه السمكيتين، بحره دخل في البر، وما عاد يكلم غير موتاه حتى يبوح لهم ببعض أسرار المدينة. البارحة رأيته يقتعد كرسي الإعاقة وينظر جهة الميناء موليا ظهره للناس والشارع. أردت أن أهديه شيئا وخفت أن ينهرني ويقول أنا لست متسولا، اتركني في حالي. اسمع ولا تتضجر أيها الصاحب. أعرف أنك قد دربت نفسك على معايشة الفراغ والصمت فعليك أن تدرب نفسك الآن على الاستماع إلى كلام الناس، حتى وإن كانت ساميا هي التي تحكي لك حكاية طفولتها للمرة الألف، أو تستعيد مهاترات يومية في الشغل والشارع ومع موظفات تافهات وزميلات لها يلتقين في البيوت أو في بعض المقاهي. ما عاد ثمة نبض لشيء، لكن الأشياء نفسها التي كانت تنبض فينا ما تزال. نحن جيل آخر، نغضب من الذين سبقونا في التجربة والمعاناة ونستهجن كلام الذين أتوا بعدنا. ما الذي يتغير أيها الصاحب، أنحن تغيرنا أم العالم تغير من حولنا من غير أن نشعر؟ ولكن لماذا تركتني وحيدا؟

هل قلت وحيدا؟ معي في السرير المجاور رجل يشتد أنينه بين لحظة وأخرى، ولكن ليلتي صماء لا آذان لها، عيناي تريان بياض هذه الغرفة حتى في الظلام، أحس الآن في هذه اللحظة وأنا أجتاز الليلة الأولى هنا، أن كل العالم قد غاب عن عيني. الوحشة أقوى من الألم أيها الصاحب. الرجل الذي ينام على السرير المجاور لسريري يتناهض وهو متكئ على جانب وأنينه متقطع، يحاول أن يجلس على السرير وينظر إلى ناحيتي ويبتسم، يحرك رأسه ويسوي طاقيته التي مالت على جانب. ويبدأ حديثه مع امرأة ظل يناديها مقبولة. أحيانا يضحك وأحيانا يتوجع، يحكي لمقبولة نكتة ثم يباغته الألم على ما يبدو فيشد الفوطة حول عنقه ويبدأ أنينه الذي يتحشرج، وبعد حين يهدأ قليلا وينظر إلى ناحيتي ويبتسم، ويكمل النكتة لمقبولة وهو يضحك ثم يكلم أناسا آخرين غائبين يسميهم بأسمائهم وكأنهم يجالسونه في ظلام الغرفة، وتبدو عليه حركات غريبة كأنه يطاوع ألم جسده لكي يرقص، يحرك كتفيه وصدره ويداه مرفوعتان في الهواء، وكل ذلك لا يسليني، فلو كنا في مصحة عقلية لعرفت أن الرجل مصاب بلوثة لكنه هنا يتألم ويضحك ويرقص وهو جالس في السرير، ويحكي النكات ويكلم حشدا من النساء والرجال، ينيخ رأسه على الوسادة ويقول: الله، ويدعو ببعض الأدعية المذهبة للشياطين، ويتخيل نفسه يركب طائرة توشك على السقوط فيتمسك بحديد السرير وعيناه غائبتان ثم يقول هذه امرأة وليست طائرة، ويحمد الله على أن نزعوا عنه وثاقه قبل حين، بعد أن نادى الممرضتين وبكى وشكا وحلف بالله العلي العظيم أنه لن

يكسر زجاجا ولن يضرب أحدا بعد الآن، وطلب شهادتي في أنه رجل هادئ وعاقل، وأنه قد نام وسينام، فنزعوا الأحزمة الجلدية التي كانت تطوق يديه وقدميه، وحالما خرجوا قال لي ينظر ما يفعل الله إذا هجت وكسرت الزجاج أوضربت أحدا فما ذلك بإرادة مني، وكل ذلك لا يسليني.

حينما دخلنا الغرفة أنا وأنت وساميا لم يكن في سريره، ربما كان في غرفة الإنعاش. الوحشة أقوى من الألم أيها الصاحب. غاب العالم عن عيني وماتت الأحاسيس ولحظات القلق والانبهار والثرثرات التي لا تنتهي. لا شيء يمكن تلمسه أو رؤيته في هذا الظلام، وها أنا سمكة منزوعة البشر والزعانف مقتلعة العينين، فكيف أرى البوليبار ووجوه الصحاب وحانة الجرح في الحائط، وكيف أقرأ أخبار الحرب في الجرائد. الحرب تركتها ورائي وأنا أدخل هذه المصحة ولكن ها هي أمامي وليس لي سوى أن أغوص في مجاهل النسيان. لماذا أتيت إلى هنا؟ هل أنا مريض وعلاجي في هذه المصحة؟ كل المغارات التي دخلتها ورأيت فيها ما رأيت، من أهوال وعجائب وعوالم وطقوس، خرجت منها وعدت إلى أوهامي من غير أن أسير في العدم، وإن تحسرت على ضياع طنجة مني، ووجوه عمال الميناء، ورقرقات الموجة البحرية وأصوات أذان الفجر وهي تتصادى من مآذن المدينة، وهبات رياح الشرقي، والجرائد المعروضة على الأرصفة، وبقال الحي الظريف بابتسامته وحكايته وأخباره ونميمته في الجيران، ورجال مقهى الحافة الخطرين، وحي القصبة وبني مكادة وورد أحرضان والسوق الداخل. هكذا ضاعت طنجة مني أيها الصاحب وصرت سمكة خارج مائها، ولم يبق في الذاكرة سوى الرماد.

وها أنت تتركني وحيدا.

الفراش الذي تعودت أن أنام فيه، وقد حفر فيه جسدي حفرته الخاصة، في مكان معلوم، ها أنا لا أنام فيه في هذه الليلة، وكأن كل أناس هذا العالم، في زمن حرب كهذه قد غادروا أسرتهم وراحوا للنوم في العراء، متوقعين قصف المدن، ماعدا واحدا منهم، هو أنا، الذي انتقل من سرير لسرير. هذه الوسادة رقيقة جدا وأنا أحتار هل أضعها بين الكتف والعنق حتى تملأ ذلك الفراغ بعد أن سويت منها كرة صغيرة أم أحضنها بين ذراعي ورأسي مسند إلى عمود الحديد البارد. بقيت أتلهى لبعض الوقت بوضعها على صدري، ثم أتوسدها، وأعيدها إلى ذلك الفراغ بين الكتف والعنق، ثم أرمي بها ناحية قدمي وأهدأ لبعض الوقت ناظرا إلى السقف، مشتهيا تدخين سيجارة وتوترات نقص النيكوتين في الدم تشنج أطرافي، ويداي راعشتان والنوم يتمنع، وبياض الغرفة أراه في الظلام، والرجل المضطجع في السرير المجاور لسريري يغط في نومه ثم فجأة يميل على جانب ويرفع رأسه محاولا أن يصير جالسا وهو يئن، وبعد أن يجلس جسده على السرير يحكي حكاياته لأناس مجهولين، ويضاحك مقبولة، ويرمي بأوراق النقد على أجساد الراقصات اللواتي يقول إنهن عاريات،.ويحاسب سواق سيارات الأجرة على اليوم، ويضحك أو يبكي، ويتحسر على موت كليتيه، ويحتار هل يملأ تلك الخوابي التي اشتراها بالسمن والعسل الحر أم يملأها بالخمور.

هل أخرج إلى الممر؟

باب الغرفة مفتوح كما تركته الممرضة، وقد نبهتني إلى مكان

زر النداء إن كانت هناك حاجة إلى حضورها. هي واحدة من الإثنتين، تشابهت علي سمات وجهيهما ولم أبال بأن أميز بين الواحدة والأخرى، فما عاد بإمكاني سوى أن أتذكر ما حدث في صباح هذا اليوم. كانت ساميا تتكلم وحدها وأنت تسوق السيارة ولا تريد أن تتورط في التعليق على ماكانت تقول، وأنا أجلس في المقعد الخلفي، غير ناظر إلى القنطرة والشاطئ الرملي ورافعات الميناء التي كانت تظهر على بعد. وإن كنت أشعر بوجود كل تلك الأشياء في أماكنها بحدس معرفتي بالمكان. كانت ساميا تصخب وهي تنكأ بعض جراحك وبخبرتها تبحث عن مكامن تلك الجروح. بدأت من أنك لم تحلق شعر لحيتك في هذا الصباح، وأنك بالغت في الشرب في الليلة الفارطة مع الصاحب وخرجت عن طوعك وقالت إنها تعرف أنك لن تتذكر ما رميت به من حجارة في مياه آسنة وأنها ماكان يمكنها أن تدحض ترهاتك وأنت في عالم آخر، وذكرتك بأضراسك المنخورة وأنك لم ترد أن ترافقها في نفس الموعد إلى طبيب الأسنان في مساء البارحة وقالت لك أنت ضرس منخور. كلك مجرد ضرس نخرته سوسة الليل والنهار. رجل لا يقرأ، يتصفح الجرائد ولا يتوقف حتى عند العناوين الأساسية ويدعي أنه يعاني من قلق العصر، حداثي بالكلام وأكبر رجعي ومتخلف، سلبي وعدمي، تظن أن أناك هي ما يجب أن ينشغل به العالم وحتى الأطفال لا تقدر على إنجابهم وتتعلل بالخوف عليهم من المستقبل وإحباطات البطالة، أسمعك وأنت تردد ذلك البيت الشعري الأثير لديك:

لدوا للموت وابنوا للخراب

تحديقك الدائم في الفراغ يذهلني، وأحيانا أنسى وجودك معي في الشقة وأوطن النفس على أن أحيا مع شبح رجل. كل السجناء الذين تقاسمت معهم نفس الزنزانة تصالحوا مع الواقع وبدأوا مشاريع حياة، ماعدا أنت، حظي أنا في هذه الحياة. عاداتك اليومية لا تتخلى عنها. صحن السلاطة وكأس البيرة كل زوال على حافة الشرفة، وعلى مرأى من سكان العمارات المجاورة. الكأس في يد والسيجارة في يد. أنت معطوب، تقول إنك تتعارض مع السلطة ولا مكان لك في الأحزاب فهل أنت قادر على شيء بسيط وهو أن تبتسم ذات يوم؟ أتحداك إن ظهر الابتسام على وجهك. فزاعة عصافير.منذ متى لم تقل لي كلمة غزل، ولم تنظر إلى عيني، أنا من كنت تقول عنها في ذلك الزمن، هي امرأتي وعيناي؟ ألست امرأة أحتاج إلى رجل يغازلني ويستمع إلى ثرثراتي وأوهامي وأحلامي؟ أما عدت قادرا على أن تنظر إلى عيني؟ بقيت ساكتا أيها الصاحب وانعطفت بالسيارة مع منعطف من غير أن تضغط على دواسة الفرامل بالرغم من أن المنعطف كان يؤدي بنا إلى طريق صاعد، وحالما توقفت السيارة دخلنا الباب الخارجي، ومشينا في طريق مشجر وساميا تسبقنا، وقالت لي:

ـ ألا يكفي كل هذا الجنون؟

ولم أرد. وقلت:

ـ ساميا لا تعرف كم أنا أحبها، أحبها لأنها مجنونة.

ولم أرد وقلت:

ـ شحناتها الانفعالية لا بد أن تفرغها مرات في اليوم.

ـ وهل كان كل ذلك الكلام ضروريا ونحن نأخذك إلى

المصحة؟

- ... ...

- كابوس. أنا أيضا تعودت أن أنتظر إفراغها لتلك الشحنات في أوقاتي.

- ... ...

التفتت ساميا نحوي، وبدا من نظرتها أنها قد سمعت كل ما قال، ولكنها نظرت إلى عيني وقالت:

- هل أنت خائف؟

- ... ...

- دع الخوف للجبناء. يجب أن تنسى التدخين إلى الأبد. البارحة أحرقت عشرات السجائر.

- ... ...

كانت أشجار ذلك الممر القصيرة غير مبهجة للعين، وهي تسكن تحت وهج شمس صباحية حارقة أغشت أعيننا، وساميا تسير بخطاها المسرعة وأنا والصاحب نمضي خلفها كأنما تقود خطانا نحو مجاهل لم نتوقع أن ندخلها، ولم نستدر نحو الوراء، وظننت أن في يدها تفاحة، وذراعاها النحيلتان تتمايلان، وفستانها الأسود يسير أمامنا كأنه سوف يعلو في سماء أو سيهبط في أسافل وهي تستدير نحو الخلف لترى ما يسكن وجهينا من اضطراب، حتى وصلنا إلى المدخل، وترددنا في الدخول، فالتفتت نحونا واستحثت خطانا على المضي.

لوحة كبيرة كتبت عليها بعض الإرشادات لم نبال بقراءتها. واجتزنا الردهة الواسعة وتقدمنا نحو موظفة الاستقبال. سوت

نظارتها أكثر من مرة وزوت ما بين حاجبيها وهي تحدق في الأوراق مترددة بين النظر إليها وإلينا، ثم أخرجت سجلا ومجموعة من الأوراق ألصقت عليها لصائق بها أرقام وعلامات، وأطلت من وراء الحاجز كأنها تبحث في تلك الردهة عن أحد، فبدا من نظرتها أنها لم تجده.

ونظرت إلى الصاحب وقالت له:

ـ أنت؟

ضحك وقال لها:

ـ أنا أو هو، سواء. مسألة وقت فقط. هو لديه الوقت للبقاء هنا وأنا لا وقت لي.

بدا الغضب على موظفة الاستقبال وقالت:

ـ نحن لا نمزح هنا.

وتدخلت ساميا:

ـ اعذريه، كلاهما مريض. واحد سيدخل مرحلة العلاج والآخريؤجل.

وتطلعت إليها الموظفة من وراء نظارتها:

ـ ولماذا يؤجل؟

قالت ساميا:

ـ اسأليه. يقول لا وقت له.

وأرادت الموظفة أن تحسم هذا الموقف فقالت وهي تمد يدها بالأوراق:

ـ الطابق الثالث. الغرفة رقم 24.

ـ قال لها الصاحب:

ـ هل يمكن أن نرافقه؟

ضحكت وقالت :

ـ ترافقه أم يرافقك؟

وعجلت ساميا بخطاها نحو الأدراج فتبعناها. الحقيبة السوداء في يدي، بها ملابس داخلية وبعض الكتب، وفرشاة أسنان نسيت أن أصحبها بالمعجون، وصابونة وآلة حلاقة. هذا هو الطابق الثالث، وهذه هي الغرفة رقم 24. قرأنا على الباب عبارة بحروف كبيرة حمراء:

حالة خطرة ـ ممنوع الدخول

الباب مفتوح ولا أحد في الداخل، سريران خاليان مرتبان، ترددنا في الدخول ولكن ساميا دخلت فتبعناها. قلت:

ـ هل أخطأنا في رقم الغرفة؟

قالت ساميا:

ـ لا تخف، العبارة المكتوبة على الباب لا تعنيك. كيف يمكن أن يعرفوا أن حالتك خطرة وأنت لم تخضع للفحوص بعد؟

وضحك الصاحب وقال :

ـ ولماذا لا تكون حالته خطرة، حالتنا جميعا؟

قطبت ساميا وقالت وهي لا تلتفت نحوه:

ـ الموظفة قالت لا وقت للمزاح هنا.

وضعت الحقيبة على السرير المجاورللنافذة، وأطلت ساميا على غرفة النظافة وقالت:

ـ هل أضع لك الحوائج في الخزانة؟

ولم أرد، فقالت:

ـ انزع ثيابك وارتد المنامة.

قلت لها:

ـ هل سأنام الآن؟

قالت:

ـ عليك أن تبقى في السرير، بعد حين سوف يأتي الأطباء لتقرير مباشرة الفحوص.

وقفت وسط الغرفة حائرا وقال لي الصاحب:

ـ مالك؟

قلت له:

ـ لم أحمل معي الجرائد اليوم.

ـ أنت مريض وتخوض حربا مع جسدك، لا تفكر في الحرب.

وقالت ساميا:

ـ وهل هو ميت؟ كيف لا يفكر في الحرب؟ في المساء سأعود إلى هنا ومعي الجرائد. لدينا جهاز ترانزيستور لو تذكرته لجئت به معي، الرجل ليس ميتا على كل حال.

وقالت كل الناس يمرضون وأنتم لا تعرفون كيف تباشرون مرضكم. الواحد إما أن ينسى مرضه إلى أن يستفحل وهو مشغول بالحانات والمقاهي مدعيا أنه يحمل جبالا فوق كتفيه، وإما أن يصبح شكَّاءً بكاءً يستدر العطف بمرضه. مصيبة. أحياء أو أموات لا أعرف. اختلطت عليكم أماكن وأوقات الليل والنهار وأصبحتم تحزنون في فرح وتفرحون لأشياء لا معنى لها. النظر إلى العالم بالمقلوب. العالم لا يبدأ منكم ولا ينتهي بعدكم. وهذا التعس لا يعرف حتى أن يبتسم لشيء، يتظاهر بأنه لا يجب أن يتكلم

عن تجربة السجن، وهو يحولها إلى رصيد جامد ورأسمال خاسر. ألا يمكن للإنسان أن يحلم بتغيير محتمل في ظل الممكن؟

ظل الصاحب ينظر إلى فراغه ثم تحرك نحو باب الغرفة وهو يشيعني، منكسر النظرات، وتوقعت أنه سوف ينسى الجرائد وجهاز الترانزيستور ومعجون الأسنان، متكلا على ساميا، ولما انسحبت من غير توديع حسبتها هي الأخرى ستنسى.

نظرت من النافذة ورأيت حدا لماء البحر وجمالا تنوخ على الرمل. وعلى تلك الربوة شاهدت أسس أبنية وبنائين ينقلون الحجر والرمل والآجر. الديناصورات التي صاحبتها في غرفة الصاحب ما عاد لها مكان في العين والمصاحبة، قال إنها لم تعد تحتمل تلك الشقوق لكل هذا الوقت، وهو من كان يقول إن طينها يبدو وكأنه لم يجف بعد. من يمكنه الآن أن يرى تلك الديناصورات وقد رمت بها ساميا في الشرفة بعد أن تهشمت ولم تعد قادرة على الإيحاء بشيء؟ نسيها الصاحب كما نسي الأغراس التي كانت طافحة والشموع والقناديل والكتب وقوارير الخمر الفارغة. نسي أو أنه لم ينس. ربما المتاهات أخذته كما أخذتني، وأقاويل القبرات، والترهات كلها، وما عاد في زمن الحرب هذا سوى الانتظارات المحفوفة بقلق يعصف بكل شيء. أهي خيبات أخرى أم انتصارات تأتي من حيث لا نتوقع، أم أن زمنا آخر للذهول هو القادم؟ لن نموت إلا حين يحق علينا الموت، ولهذا ينبغي أن نموت وقد أرحنا ضمائرنا، الأوجاع لا حدود لها وساميا وإن كانت موجعة فهي أيضا تتوجع، امرأة نسيها الحب فنسيت جسدها وترجلت وتعلمت خطة الهجوم، الزبيبة السوداء، الناتئة على

الجانب الأيسر من ذقنها تبدو وكأنها تقويها على الأخذ بزمام الكلام والتحدي.

أدخلوه محمولا على سرير ذي عجلات وحملوه إلى السرير الذي بجوار سريري وقيدوه بالأحزمة. تعلقت قارورة السيروم وأخذت قطراتها تهبط، وقبل أن يغادروا الغرفة أوصوني بالضغط على زر المنبه إن أنا لاحظت توقف قطرات القارورة أو رأيته يتحرك بعنف أو طلب مني أن أنادي إحدى الممرضات. نظرت إلى عينيه الغائبتين، وأخرجت كتابا من الحقيبةأخذت أقرأ ما فيه وأنا أراقب قطرات السيروم من لحظة لأخرى. فتح عينيه ورآني، استدار نحوي وابتسم وقال:

- أخذت مكاني. كنت أحب أن أبقى بجوار النافذة.

ولما لم أرد عليه قال:

- الشعباوي، أنا أخوك، السي الشعباوي. الكلي والشكوى لله.

قلت له:

- لا بأس الله يشافيك.

وأخذ يحدثني عن التنقية الكلوية وتكاليفها الغالية وعن سواق سيارات الأجرة الذين يغشون في الحساب وعن مقبولة التي تذهب لتزيين شعرها إلى صالون حلاقة تأتي إليه البنات الصغيرات من مرافقات أصحاب البترول، وكم نهيتها عن ذلك الصالون وهي لا تذهب إلى غيره. طنجة كلها صالونات حلاقة، في الدروب والشوارع في كل الأحياء وحتى في الفنادق، تذهب إلى ذلك الصالون ثلاثة أيام في الأسبوع وفي يوم السبت تتأخر كثيرا وتقول بسبب الزحام، تعود وهي تشتكي من الريح والعرق اللذين

يفسدان تسريحة شعرها، ومن الحرارة التي كانت خانقة في الصالون، ولا تريد أن تحكي شيئا عن البنات، عما يحكينه من حكايات لياليهن. وأنا أعرف كل شيء، أسماءهن ولياليهن ونومهن في النهار وسهراتهن الراقصة في الليل. مقبولة لا تسمع كلامي. لو كانوا قد قيدوني البارحة لما كنت قد كسرت الزجاج. آه. أصلحوه؟ كنت في مكانك وكسرت زجاج تلك النافذة. ضربت ذلك المرض، أخذوني إلى غرفة الإنعاش. انظر إلى البيندة في يدي. ألم يأت أحد لزيارتي وأنت هنا؟ دخلت في الصباح؟ ستأتي مقبولة وتراها. الممرضة العبوس رشوتها بورقة مائة درهم من أجل أن تبتسم فأخذَتها ولم تبتسم، والممرضة البشوش ظلت تضاحكني وتحكي لي حكايات وهي تهدئني وأنا أنظر إلى غمازتيها فأعطيتها ورقة مائة درهم ولكنها لم تأخذها، وظلت تريح جسدي على الفراش وتمسد ذراعي وتلاطفني. العبوس دخلت ليلة البارحة قبل أن تأتيني تلك الحالة وأكسر الزجاج، فأضاءت الغرفة واقتربت مني وخفضت جفن إحدى عيني ونظرت إلى الداخل تحد الضوء وتركت الباب مفتوحا.

هذا هو الشعباوي، جاري في الغرفة. بعد حين أيها الصاحب صار يغط في نومه ولم يبق في الظلام سوى بياض الغرفة والانتظارات كلها، وإحساسي بالجوع. دخلت بعد تقديم طعام الغذاء، والعشاء الذي قدم لي في الخامسة ونصف لا يشبع نملة، شربة قليلة وقطعة صغيرة من الخبز. في السجن لم نجع أيها الصاحب، وأنت تعرف ما كنا نأكل، ولم نشعر بكل هذا القنوط لأننا كنا جماعة وكان ثمة ما يشغلنا، وأنا أستعيد أيام زمن مضى

أو أجول في شارع باستور وألتقي مع حاييم اليهودي الذي لا شأن له بإسرائيل، وقلبه مع العرب، رجل طيب ولا سيف له سوى لسانه اللاذع وهو يسخر من كل السفاحين سواء أكانوا إسرائيليين أم غير إسرائيليين، وماذا لو دعاني إلى كأس من ماء الحياة من مشغله القريب مع سمك مصبر وأحشاء محشوة وكثير من أقاويل جبل صهيون؟ أو ربما ألتقي بالتمسماني وقد جعله الزمان يتخلى عن جنسياته المتعددة وعن طراخي الكاباردين الإنجليزي الذي كان يحرص على إظهار ياقته من فتحة الجلباب الصوفي، وعن ساعة كاوني الذهبية التي في المعصم، فأصبح يرتدي مما يجد ويتجاهل أن يعرفه أحد، وماذا لو كنت في البوليبار سألتقي بك أيها الصاحب، وأنا صاحب الصاحب؟

هو القنوط أيها الصاحب. الشعباوي يصحو الآن ويحاول أن يجلس، ومن غير أن ينظر إلى ناحيتي يمد يده إلى جوار السرير ويصعد طنجرة إلى حضنه ويرفع غطاءها ويخرج فخذ دجاجة يمضغ من لحمه، ثم يلتفت نحوي ويقول:

ـ المرق بارد.

أطل رأس تلك المرأة من باب الغرفة الذي أرادت له الممرضة أن يبقى مفتوحا، ورمت بنظرة نحو مكان سريره وتراجعت قليلا نحو الممر.

غابت لحظة وعادت تطل ثم تختفي وأنا أراها من مكاني في السرير. دخلت الغرفة بخطوات مقتحمة ونظرات زائغة ووقفت عند سريره وشهقت شهقة عالية وتظاهرت بالسقوط. أمسكت رأسها بيدها ومالت نحو الأمام مثبتة إحدى قدميها على الأرض،

ونظراتها غائبة بعد ذلك الإغماض الذي تظاهرت به حتى بدت كأنها لم تعد ترى شيئا من حولها، وشهقت وهي تنظر إلى سريره رافعة أسافل جلبابها الرماني إلى وسطها، شمرت عن ساعديها وكفاها حول وجهها تهددان بلطم الخدين، وبدت ستولول، ولكن أنفاسها انكتمت.

كان الشعباوي ينظر إليها ولا يتكلم. اتجهت نحوي وتفحصتني وهي تنحني علي حتى كاد صدرها يسقط فوق صدري لولا أن انزحت قليلا والتصقت بالحائط. قالت لي:

- مات. كنت أظنه مات.

واقتربت منه بحركات حذرة متباعدة على قرب ونظراتها مخطوفة ثم عادت إلى جوار سريري، وتظاهرت بالسقوط حتى كادت تسقط فوقي وقالت لي:

- حي! ها هو لم يمت.

ظلت تترنح في وسط الغرفة،وقالت لنفسها آه نسيت،ثم خرجت إلى الممر وعادت تحمل طنجرة كوكوت وعلبة بلاستيكية سوداء وضعتهما بجوار سريره، فتحامل على الاستواء جالسا وهو يسند ظهره بالوسادة، والتفت نحوي وقال لي:

- مقبولة، امرأتي.

وقالت:

- مسكين. تكلم. مازال تيتكلم.

انحنت على طنجرة الكوكوت التي كانت بجواره وأزاحت عنها الغطاء وقالت:

ـ خاوية؟ واكل. أكل الدجاج كله اللي كان فيها. ها هي طنجرة أخرى فيها دجاج آخر. كل معه. كل معه الله يخليك.

فهمت أن بجواره طنجرتين، واحدة فارغة والأخرى هي التي جاءت بها، عيناها تنظران إلي وهي توسع منهما وتبتسم. جلبابها الرماني بعد أن رفعته إلى وسطها صار فخذاها باديين، فقد كانت ترتديه على الزبطة على ما يبدو، وجهها أبيض وعيناها زرقاوان والوشم الدقيق على الذقن ما تزال آثاره ظاهرة رغم المحو، شعرها أزعر أثيث مصفوف ذكرني بما قاله الشعباوي عن صالون الحلاقة ليلة البارحة. قلت إنها ربما من الفحص أو اكزناية أو بني عروس. لهجتها جبلية وقامتها مديدة مشدودة وفي ابتسامتها إشراق يخفي الكدر وبعض التجاعيد. وبالرغم من أنها تقارب الأربعين فقامتها مشدودة فارعة ليس فيها انحناء أو ترهل. ظلت واقفة في وسط الغرفة وقالت لي وهي تشير إليه بسبابتها رجل عنده الفلوس، وفركت وسطى أصابعها بالسبابة. كل الطاكسيات التي تجري في شوارع طنجة هي ملكه، السواق يسرقونه رغم العداد، حسابهم دائما ناقص، وأنا المسكينة شابة صغيرة والرجل مريض. مات؟ مازال الله يشافيه، غدي يخليني وحيدة برانية ما نعرف ما نعمل براسي. هو غطاء راسي. هو اكتافي. لكن راه واحد الحرامي، فيه الهزة، عينه خضرا وقلبه أخضر. محمق على النسوان. سامعة كل شي على السهرات فأطيل الموحدين. شي صديقات ديالي فالصالون قالوا لي كل شي. راه تيخسر الفلوس فالغرامة على الشطحة والردحة. قالوا لي ديري له اللجام. غدا يموت ويخليك على الدص. آ اشمن لجام؟ كن غير داني نشطح ليه ويغرم علي

الفلوس. الشطحة فالدار بلا فلوس بلا غرامة. ياك آخاي؟ خسارة. ما تبغيش نخسر له خاطره. ياك المرا تشطح لرجلها؟ وفين هو؟ ديما فالأوطيلات والقصاير حتى للصباح، وأنا مسكينة مع كاسيطات الفيديو تنشطح لراسي، غير فالدار، وحق الله العظيم آشنو اسمك، آخاي، ولكن راه مشى وأنا بقيت، الله أعلم. الشعباوي ما يموت حتى يسبقوه للقبر شي ألف أو ألفين. يقدر يسبق قدامه للمقابر هاد الأمة كلها ويبقى عايش بوحداتو كبحال الغراب، الله يستر، هو كيموت وكلا جوج دجاجات. مسكين! حتى أنت مريض! مزوج؟ عندك النوبيا؟ فين ساكن؟ خسارة عليك آ الزين تكون مريض.

ظل الشعباوي يتابع كلامها وهو يبتسم ابتساما مريعا، ويتظاهر بالألم ويئن من حين لآخر، وهي لا تلتفت نحوه وتنظر إلي وتوسع عينيها، وأنا أتجاهل نظراتها ثم أجدها تجوسني بنظرتها، وهي تتكلم واقفة قبالتي مديرة ظهرها إليه، وجسدها يتحرك، وهي تزيد من رفع أذيال جلبابها إلى وسطها وفخذاها عاريان وأنا أتحاشى النظر إليهما وكلما نظرت نحوه أراه يبتسم، وإذا ما تقابلت نظرته مع نظرتي يتظاهر بالألم ويئن. استند إلى جسده وأنزل إحدى قدميه إلى الأرض، فبدا كأنه يحاول الوقوف ولكنه بقي على تلك الحال. وقال لها البارحة كسرت الزجاج وضربت أحد الممرضين، وقع لي شيء في رأسي، وأخذوني إلى غرفة الإنعاش، ولما عادوا بي إلى هنا ربطوني بالأحزمة مع السرير، ولولا هذا السيد لما فكوا رباطي، لولا حقنة المخدر لكنت قد قتلت عشرين أو ثلاثين، أضرب من هنا ومن هناك، ويدي فيها دم وجروح ذلك الزجاج،

زجاج تلك النافذة، أصلحوه، الدم كان يجعل كل شيء أحمر في عيني فأخذت أضرب من هنا ومن هناك، ورأيت الدم في كل الجدران والوجوه، ولم أميز بين رجل وامرأة، والحمد لله لم أضرب ممرضة، الرجل يضرب الرجل ولكن المرأة رقيقة، رهيفة القلب، لا تحتمل، وماذا كان سوف يحدث لو ضربت تلك الممرضة الزوينة؟ حرام. أنا نادم، ولكن ماشي لخاطري، وأنا عمري ما ضربتك آمقبولة، المرا هنا فالصدر، وأشار إلى صدره، هنا في العين، أشار إلى عينيه، وقالت مقبولة: هنا، وأشارت إلى وسطها، فأخذ يضحك والتفت نحوي وقال لها رجل ظريف، مسكين فمه ساكت، والله ما قال لي، سره فقلبه والله اللي عالم آش به، وغير قولي آمقبولة، راه مسكين ما سمع وما شاف، حشومي، والله حتى نخلص عليه فلوس هاد الكلينيكا، باين ما عندوش، راه تيبات يخمم، فين الفلوس؟ جاب لك اسطانطو شي حاجة؟ أنا ما جا عندي حد منهم، أولاد السوق، ولكن آمقبولة، التلفزيون الصغير عافاك، راه خصني نشوف، ووراه خصه يشوف، وأشار إلي، جيبيه فالعشية الله يعطيك شي عزري من حزامك، شي عايل ازوين، وقالت آويلي، نجيبه من الكاراطيرا،نحبل مع أولاد السوق، أنت ما فيك حتى قطرة د الدم، آويلي! وتظاهرت بالسقوط. آويلي قال خصه يشوف، الرجل ماشي للمقابر وهو قال خصه يشوف، تشوف العمى آالشعباوي، ما شبعت ما سهمت؟ إيوا نجيب لك أوطيل الموحدين كله لهاد الكلينيكا، حتى لقدامك لهاد الباياص. وقال لها وهو يبتسم جيبه، ونشخخضوا هنا شي شخضة مزيانة، وضحكت وقالت له خصك شي عايلة تقرفصك آ

الملعوق؟ وقال لها خصني شي عايلة تشطح لي، وتضاحكا، وأشار لها أن تقترب، فاقتربت منه ووشوش في أذ' كلام لم أسمعه وأخذا يضحكان، ولما همت بالخروج من الغرفة استدارت نحوي وقالت :

- خصّك شي حاجة آخاي؟

- قلت لها :

- الجرائد . إن أمكن .

- تتقرا فالكازيطات؟ آاشمن اخبار غير الخوا الخاوي؟

- الحرب .

- آويلي الحرب؟

- الحرب يمكن أن تقع .

- آويلي . يمكن الدبان ما يدوزشي فالطريق، عساك الطاكسيات .

- وقال لها الشعباوي :

- ماشي هنا . ما تخافيش .

- وفين؟

- قال لها :

- ماشي شغلك .

- آويلي الحرب وماشي شغلي؟ يمكن الدوفيز يزيد .

- ويلا زاد؟

- ماشي شغلك آالشعباوي . باراكا عليك الطاكسيات .

وقالت لي :

- نجيب لخويا الكازيطات، وحتى التلفزيون غدي نجيبه .

وانسحبت وهي تأخذ في يدها الطنجرة الفارغة إلا من بقايا عظام الدجاج ومرق بارد، فقد كان الشعباوي يمتش ويعيد العظام إلى الطنجرة، وهو من قال لي: المرق بارد.

بعد خروجها سوّى الطاقية على رأسه ورفع الطنجرة إلى أن وضعها فوق السرير وهو يتأوه، وقال لي:

ـ قرب. باسم الله.

كنت أموت من الجوع ولكني لم أستمرئ أكل دجاج بارد من الطنجرة مع رجل لم يغسل يديه، فاعتذرت له بأن الطبيب منعني من تناول أي طعام غير ما يقدم لنا هنا في الوجبات، وأخذ يضحك ويقلد صوت الممرضة العبوس:

ـ الغذا فالحداشر ونص، والعشا فالخمسا ونص.

وقال لي قبل مجيئي إلى هنا كانت قد اطلعت على ما في الطنجرة وأرادت أن تسحبها من الغرفة قائلة بأن هذا الطعام لا يلائم صحته ولكنه هددها بأن يستدعي وزير الداخلية ليعيد إليه دجاجه. ولما رأى الرعب في عينيها أشفق عليها وأعطاها ورقة مائة درهم فتركت له طنجرة الدجاج. قدم لي تفاحتين أخرجهما من العلبة البلاستيكية السوداء حاول أن يرمي بهما في اتجاهي ولكنه لم يقو على ذلك فأخذتهما منه وشممت رائحة التفاح.

في تلك اللحظة جاءتني أيها الصاحب روائح الأرض والشجر وكل خصوبة هذا العالم، وبدت لي حقول نضرة خضراء فسيحة وأنا أهبط الوادي وأغتسل في ماء النهر، أغطس حتى القاع وأصعد، أفتح عيني في اخضرار الماء وأرخي جسدي في حركة تصعد بي إلى حيث تغزو عيني أشعة الشمس، وأعود إلى هبوطي

وأنا أشم رائحة التفاح وكل روائح الأرض والتراب ممزوجة بروائح القيعان، وعندما أصعد أخرج من الماء وأسير فوق تراب حارق بين عيدان قصب تسور حقولا فأجد الباب الذي هو باب البستان، أدفعه فينفتح لي وآكل من الإجاص والتين والخوخ والمشمش وأنا أقطف من تلك الأشجار الدانية القطوف أتلذذ بأذواق الفواكه وروائحها الزكية هي روائح ذلك الهواء، والعالم فسيح وأنا لا أدري أكنت أسبح أم أطير ولا أدري أصرت دلفينا أم عقابا أشم رائحة التفاح وتتملكني حمية اللحم والعالم فسيح وكأني في غور الماء أو في البستان أو في دارنا القديمة وأمي تطبخ طاجين الغرنك بالبصل والزبيب وتقول لي بعد أن يتشحر على النار: قرب باسم الله، وأنا أقول لها شبعان، وهي تقول أكلت البوكاديو عند با ادياليي وأنا أقول أكلت التوت والمشمش والخوخ والرمان في البستان، وهي تقول أي بستان؟ كفاك من معاشرة أولاد السوق، هل تعلمت أن تسرق الغلة من بساتين الناس؟ وأقول لها أنا أمزح معك يا أمي، أكلت البوكاديو عند بادياليي، وتدعو جارتنا أمي زهوة لتأكل معها من ذلك الطجين، وأمي زهوة تقول لها تبارك الله عليك، مشحر عندك هاد الطاجين، أنا وأنت نأكل والعايل تيتفرج، وتفوح رائحة طاجين الغرنك بالبصل والزبيب فأشم منها رائحة التفاح، وأمي تقول لأمي زهوة أولاد اليوم يفطرون ويتغذون بالبوكاديو، وأنا أنظر إلى ماء أو سماء ولا أدري أأنا الدلفين أم العقاب.

هي قسوة كل هذه الانتظارات أيها الصاحب. زمننا هو زمن الانتظار، وها أنا أنتظر مجيئك إلي بالجرائد ومعجون الأسنان

وأنتظر نتائج الفحوص والتحليلات الطبية وكلنا ننتظر تنفيذ تهديدات الحلفاء وبداية الحرب. أحيانا أتوهم أنك لن تأتي وأن نتائج التحليلات سوف تتأخر إلى أن يصبح بقائي هنا نوعا من البطالة أو الاعتقال. وأن لعبة شد الحبل بين العراق وأمريكا ستطول ونحن ربما نرغب لها أن تطول وإن كان ذلك يثير أعصابنا ويجعل الشوارع في حالة غليان يجد فيه الناس وجدانا مشتركا وانشغالا يوميا عن الكسل والفراغ وتحريكا للمنظمات والأحزاب، أتوهم، إذ أنك لو نسيتني هنا وسأل عني الأصدقاء في المقهى فستبتسم وتقول لهم أرسلناه إلى مستراح حيث سيرى الشمس تشرق في ميعادها وسيشم هواء البحر، أعرف دعاباتك المرة. هل جئت إلى هنا لأرى الشمس تشرق في ميعادها؟ وأي ميعاد؟ وستقول لهم لن يدخن أي سيجارة، حتى واحدة في اليوم لأنه لن يجدها، فرضنا عليه ذلك لأن وعوده بأن ينقطع عن التدخين كانت كلها كاذبة رغم الإصرار الذي كان يبدو في عينيه. تجربة الذهاب إلى جبل الحبيب لم تنفع. ترك السجائر وراءه وذهب إلى جبل الحبيب ليرعى القنافذ فصار قنفذا مدخنا حتى وهو هناك. وهل كنت أيها الصاحب أنت من ذهب إلى جبل الحبيب أم أنا؟ أنسيت؟ أنا نسيت؟ أظن أنك كنت قد تركتني في شقتك مع الأغراس والكتب والقواقع والديناصورات وذهبت. أنت من كان ذهب إلى جبل الحبيب أم أنا؟ وهل هذا مستراح أم مكان للانتظار؟ يمكن ربما. قلت لك ليلتي صماء لا آذان لها. هل قلت لك هذا؟ أنا ضجر وجوعان وعطشان، وأقول لك أشتهي سيجارة، وإذا مت فليس على أحد أن يبكيني. أمي ماتت وهي آخر ما تبقى من

شجرة العائلة. ساميا لا يمكن أن تبكيني لأنها لا تبكي نفسها ولا تبكي أحدا، صلابتها علمتها أن لا شيء من الحياة ولا شيء بعد الحياة سوى الذكرى، وأنت لا تعرف إن كان موتك هو موتي أم أنه موت آخر.

البارحة خرجت من الغرفة إلى الممر وتعرفت على أحد النزلاء. كان متألما ومذهولا، قال لي جاؤوا به في سيارة الإسعاف وأهله لا يعرفون منذ أربعة أيام مكان وجوده، وطفرت من عينيه الدموع، قال لا أستطيع أن أفارق ولدي عباس يوما واحدا فكيف لم أره منذ أربعة أيام؟ لا أخاف على نفسي من مرضي ولكن أخاف على الولد من أن يصاب بعقدة نفسية. عباس! وطفرت عيناه بالدموع. قال لا أحد لي سواه، مع أمه أشعر بالغربة وهو ابني وصديقي وأخي. لن ينام ولن يأكل في غيابي، وليس عندنا تلفون في البيت، هنا في المصحة مخادع الهاتف ولكني لا أحمل معي نقودا، وقلت له آتيك بالنقود من الغرفة فوضع يده على ذراعي وأمسك بي وقال المشكلة ليست في فلوس الهاتف ولكني لاأحمل معي أي أرقام لأناس أتصل بهم حتى يخبروا عباس بأنني مسافر أو في مكان آخر غير هذا لكي لا يصيبه الحزن، صغير ويحزن؟ حرام أخاف أن يكون قد أخذ يتبول في الفراش. لم يتعود أن ينام في فراشه أو مع أمه، ينام في سريري، أطعمه وآخذه إلى المدرسة وأغسل جسده في الحمام وألعب معه بلعبه وأنزهه في الشوارع والحدائق، يرسم وجهي بقلم الفحم ويقول لي هاأنت، ولا أرى سوى دائرة فارغة، وأقول له أين العينان والأنف والفم، ويقول لي هكذا أحسن، ها عيناك، ويشير إلى عيني في وجهي. جاءتني

الأزمة وجاؤوا بي إلى هنا على حين غرة. أنت في الغرفة 24 مع ذلك الذي كسر الزجاج وضرب الممرضين؟ سمعنا الصداع. مسكين الله يشوف من حاله.

وأمسكت بذراعه متوجها نحو الأدراج لكي نهبط، ولكنه توقف وقال تعليمات المصحة صارمة في عدم مغادرة الغرف. الليل. رجال الحراسة أشداء وهم لايتورعون عن أن يصبحوا سفاحين إذا ما أصر أحد المرضى على الخروج، ربما للتنزه في الحديقة، وهم يفهمون أنه هارب من الأداء، ربما أكمل العلاج وأراد أن يهرب، وحتى البطاقة الوطنية التي يحتفظون بها في الملف لا تنفع، عليهم أن يقيموا دعوى قضائية، أحيانا تكون الجراحة ويكون ثمن العلاج باهضا، الله يكون فالعون، الواحد إذا كان سيموت ينقذ حياته ولو ما عندوش الفلوس. مصحات الدولة هي الأخرى بالفلوس، تنتظر وتشري الدوا ويمكن، تصبح على خير.

وعاد إلى غرفته فبقيت واقفا في ذلك الممر بين الغرف أفكر في نزيل تستهويه الرغبة في شم النسيم وطرد السقام في جولة بالحديقة، هو نزيل مصحة وليس ميتا. فما الذي دفعه إلى الهبوط نحو الحديقة، أهو القنوط والضجر وانتظار الموت في سرير أبيض أم هي الرغبة البدائية في الخروج، أم هي الريح المرئية تدفع من وراء وأمام حيث لا جهة إلا جهات الريح؟ هل أنا ذلك النزيل الذي فكرت في حالته، أم أنني في بحران والوساوس تأكل من ضميري وأنا أفكر بهذه الأفكار التافهة السوداء؟ وتصور أيها الصاحب أن عالم الليل هنا شاسع ومتنوع يجتمع فيه السهارى في الغرف

ويتبادلون الحكايات والأسرار والنكات والجروح، يئنون وينهضون أجسادهم ويضحكون ويلعبون الكارطة ويتناقشون في الحرب هل هي ستقوم أم أن ذلك مجرد مسرحية دولية كما قال أحدهم، وقال أمريكا هي التي أوعزت لصدام حسين بأن يدخل الكويت، وأنها تريد أن تجر العرب إلى تفرقة أكثر من هذه التفرقة، وبدا وكأنه العالم بالأسرار وحده وقال بثقة كبيرة إنه يعرف أن أمريكا ستجر صدام حسين إلى حرب يفرغ فيها العرب كل ما لديهم من أسلحة، لكي لا يبقى لديهم سلاح، وتصبح الكويت، أغنى بلد في العالم، من حيث الدخل الفردي، دولة لها مديونية، ويصبح العراق، أرض الثقافة والحضارة والشعراء والرسامين، أرضا للجوع والخراب. تصور، وحمل اللوم لصدام حسين الذي قال إنه عميل لأمريكا، يسهل عليها مهمتها في تفتيت قوة العرب. ولم يرد أن يستمع لأصوات محتجة أحدها يقول صدام رجل شريف وزعيم للعرب، وآخر يقول متى كانت للعرب قوة، وآخر يطلب الكلمة ثم يتراجع عنها، وآخر يسأل هل ستصل الغازات السامة إلى المغرب، وآخر يضحك ويقول: أيها المرضى اتحدوا. يتآلفون ويسمرون، وأحيانا تأتي الممرضة العبوس لتعيد كلا منهم إلى غرفته وسريره وتطفئ النور وتترك أبواب الغرف مفتوحة فيذعنون لها ويتظاهرون بالنوم ولكن سرعان ما يتسللون على رؤوس أصابعهم عائدين إلى نفس الغرفة التي كانوا يسمرون فيها، وذلك القائل يقول:

أيها المرضى اتحدوا

وتبدأ حكايتهم هامسة، ثم ترتفع الضحكات ويبدأ الهرج

والأغاني الرقيقة والتثاؤب بأصوات مرتفعة، آخرون يتمشون في الممرات دافعين بأيديهم حاملات قوارير السيروم. وبعضهم ينتظر مجيء الممرضة البشوش ليداعبها بكلمات غزل قبل أن يسألها أهي متزوجة أم مخطوبة، أم أن قلبها خال وسيسبق إليه أي أحد. يحيون في الموت ويموتون في الحياة يتوجعون ويضحكون ويثرثرون يحلمون بعزرائيل ويوم النشور والبعث وهم يدنون من قطاف ثمرة من ثمار الجنة، امرأة وتفاحة أو سلسبيل، ولا يعرفون أهو البدء أم أنها لحظات النهاية.

وماذا كنت سوف تفعل أيها الصاحب لو كنت في مكاني هنا؟ هل أنت تغبطني؟ الحاسد وما حسد. أما كنت ستغامر بهبوط تلك الأدراج؟

لا أدري هل أصبحت دلفينا أم عقابا، هل كنت أسبح أم أطير وأنا أهبط تلك الأدراج.

أردت أن أنفض الخمول عن جسدي وما كان لي مكان في إحدى تلك الغرف، فأنا لاألعب الكارطة والمواربة في أحاديث السياسة لا تعجبني، وأسرار الناس لاتعنيني.

الردهة التي توقفنا عندها أنا وأنت وساميا أمام موظفة خالية وضوء خفيف يتسلل إليها من مكان مجهول. لم أر مصباحا أو أباجورة ولكن الضوء الخفيف كان يغمر الردهة بتساو. تسللت مع أحد الممرضات فوجدت بابا يواجهني وكان مغلقا ظننته الباب المؤدي للحديقة ولكنه أفضى بي بعد أن دفعته إلى بيت الموتى.

الصناديق ظهرت لي على ضوء الممر. مجرات ذات مقابض يمكن أن تسحب منها، ولما سحبت المجر ظهر لي جسد مسجى

وهو عار، فجذبت أكثر وابتعدت قليلا، وكانت هالة شعرها تحيط بالوجه والعنق، وعيناها مغمضتان. هل أصف لك كل مارأيت؟ أصابني الدوار والقيء المفاجئ وتركت المجر مفتوحا وعدت إلى الممر أركن رأسي إلى جدار. قئت قيئا أبيض ظل يخرج من بلعومي بصعوبة وتشنجت معدتي وبدا لي كل شيء غائما بعد أن كدت أفقد الوعي، بقيت أستند إلى الجدار مخافة أن أتهاوى وأسقط فوق ذلك القيء، ولكن رغبة استبدت بي في أن أعود إلى فتح الصناديق الأخرى، أو أن أغلق ذلك الصندوق الذي سحبته معيدا جثة تلك الفتاة إلى برودتها وهدأتها، وتذكرت كل شيء عن الأطباء الذين تستهويهم مقاربة الموتى، ولكني لم أبال، فقد تركت ذلك الباب مفتوحا والمجر الذي تثوي فيه الفتاة مفتوحا ومشيت نحو الردهة المضادة بقليل من الضوء.

وما أدراك أيها الصاحب؟ ها قد تركتني أغرق في ظلمائي وأنا أتجرع النسيان، نسيان حرب يمكن أن تقع، ونسيان فحوص وتحليلات ربما تعلن عن نهاية محتملة، ونسيان أنك لم تأت بالجرائد ومعجون الأسنان، وحتى ساميا لم تأت.

يمكن أن يكون الشعباوي الآن مضطجعا طنجرة الدجاج وهو ينهش مما فيها، أو يشد من جسده الذي كسرته الآلام ليراقص امرأة، يتوهم أنها معه في فندق الموحدين، أو أنه يعد بين أصابعه أوراق النقد التي يأتي بها سواق الطاكسيات، ويمكن أن تحدث أشياء أخرى في هذا المكان القصي، العصي عن طنجة التي ألفناها وما ألفناها.

وجدت أمامي بابا حديديا من المؤكد أنه الباب المفضي للحديقة. الحارس جالس على الكرسي وهو نائم، وعلى سنن أعلى

الكرسي علقت المفاتيح، قلت له:

ـ مساء الخير

واستمر في شخيره من غير أن يحرك رأسه أو يده. وقلت:

ـ صباح الخير.

وفجأة اضطرب شخيره وتململ على الكرسي ولكنه أرخى رأسه على كتفه وعاد شخيره ينتظم فأخذت المفاتيح وجربت منها ما يفتح الباب حتى انفتح لي، خرجت إلى ممرات الحديقة ومماشيها المحفوفة بالنباتات. شممت رائحة الأرض وهي تتنفس، وجاءتني نسمات بحرية فاستيقظت الأنثى في خاطري وفي عروقي، تذكرت فتاة بيت الموتى وعدت أقيء ذلك القيء الأبيض كاتما صوته مخافة أن يستدل علي أحد. تجاوزت الباب الخارجي ومشيت بعض الخطى في اتجاه البحر، وسمعت نداءً وأصواتا ملاحقة فالتفت ورائي. كانوا أربعة يعدون في اتجاهي بأقصى سرعة حتى أحاطوا بي وأمسك أحدهم بذراعي، وقال آخر:

ـ مريض؟ مكانك في السرير.

قلت وأنا أحاول أن أفتك ذراعي من الرجل الذي يقبض عليه بقوة:

ـ أردت أن أشم هواء البحر.

اشتد إمساك الرجل على ذراعي وقال لي:

ـ هل هذا أوطيل من خمسة نجوم؟

وقال الآخر:

ـ هارب من أداء واجب الصندوق؟

قلت:

ـ الفحوص لم تظهر نتائجها بعد. وأنا لم أتلق أي علاج.
ـ الفحوص بالمجان؟ الدولة ولا تفحص المرضى بالمجان.
ـ ارتكبت جريمة وأردت أن تدافع عن براءتك بأنك كنت موجودا هنا ساعة وقوعها؟
أخذت أسير مطاوعا مشيهم بتلك السرعة وهم يلاحقونني بالأسئلة، حتى دخلنا الباب الحديدي.
ـ من فتح لك الباب؟ العساس؟
وكان الحارس ما يزال في غطيطه.
ـ رقم غرفتك؟
ـ الطابق الثالث، الغرفة 24
ـ مع ذلك الذي ضرب الممرضين، سرقت منه شيئا أخفيته في الحديقة؟
ـ في الصباح سنرى معك.
فك الرجل يده من ذراعي وتباطأت خطاهم ولما وصلنا إلى الأدراج بقي ثلاثة في الردهة ورافقني الرابع حتى باب الغرفة، وكان غطيط الشعباوي مسموعا.
حجر أو دمع؟ دمع أو حجر؟
مرايا حجرية أو مرايا من دموع؟
هو ذا بكاء هذا النهار الذي تتحول دموعه إلى حجر أو مرآة.
الحجر أو المرآة أيها الصاحب؟ هل تعبت؟ لا أكذب إذا قلت أنني قد أصبحت أعلم قدمي كيف تمشيان بين السرير وغرفة النظافة. متران أو ثلاثة أصبحت موقعا لخطى كأنها تسير في حقل الغام أو هي خطى الذي لا يخطو في مكان، والدموع أو حجر

الدموع أو مرايا تلك الدموع هي سخرية هذا الصباح، فقد استغرق الرجل في بكائه الحارق وهو يحني رأسه ودموعه الحرى تتهاوى على خديه، ولم أعرف أين كان يخبئ تلك الدموع كلها، وهي تنزل من عينيه كالمطر، كمطر من حجارة، والحجارة تسقط على ركبتيه وهو جالس على حافة السرير، وتصير مرايا أو شظايا لمرايا. ولم يكن يختزن في عينيه سوى تلك الدموع، فوجهه طلق لا يبدو عليه التأسي ورغم البكاء فلا حزن في عينيه، دموع كالحجارة ولا حزن، ولا أدري أين كان يخبئ كل تلك الدموع، وقلت لنفسي أهو يمثل أم يسخر أم يجرب مهارة من المهارات أم أنه هو نفسه تاريخ بكاء كتاريخنا العربي، ولم أغرق في التحليل والتعليل فقد كانت الدهشة تأخذ بي كل مأخذ، أقول كل مأخذ ولو سمعت هذه العبارة مني لقلت إنها تقليدية، ولقاطعت ما أريد أن أحكيه ونسجت على منوالها أخذ به الذعر كل مأخذ، وأخذ به اليأس كل مأخذ، وأخذ به الضحك كل مأخذ وإلى آخره، والمآخذ هي ما يأخذني في هذه اللحظة والرجل يحيل دموعه إلى حجر والحجر يتحول إلى مرايا أو شظايا مرايا.

ودعك أيها الصاحب من كل المناحات التي تحضر في خاطرك آتية من طفولتنا في أحياء طنجة، إذا ما مات أحد، فهذه مناحة يقيمها رجل، ولوحده، فبعد ذلك البكاء صار يلطم خديه ويولول ويضرب بكفيه، ويشهق، غير ناظر إلى مكان.

أردت أن أنهض لأعلم قدمي كيف تمشيان ربما في اتجاه غرفة النظافة أو على الممر، وأتركه في بكائه ومناحته.

حتى الشعباوي لم يحاول تهدئته، وربما كان يرغب في أن تطول جلسة بكاء الرجل وعويله ومناحته، لعله كان يستلذ بأن يرى تلك الدموع تتهاوى على الخدين، مثل الحجر، ظلت عيناه متناومتين ورأسه يتحرك يميناويسارا وطاقيته تميل على جانب من رأسه، وهو يتظاهر بالألم، يستند إلى كوعيه وينهض جسده مقربا يده من الرجل ليساعده على الجلوس وهو يعض على شفته السفلى ويتأوه. حكى الشعباوي حكاية كسر الزجاج وضرب الممرضين وقال ربما كنت سأقتل عشرين أو ثلاثين، القوة من الله أصاحبي، شارل برانسون، رامبو، سيدنا علي وهو يحارب رأس الغول، لا ترني الآن هكذا كنت سأهدم أسوار هذه الغرفة، ولكنهم وخزوني بإبرة فعدت أنا الشعباوي رهيف القلب، صاحب العين الخضرا، الذي لا ينهض دجاجة عن بيضها. غيرت عجلات السيارة؟ دفعت الضريبة؟ رأيت مقبولة في هذا الصباح؟ هي ستأتي، كم دفعت لها من النقود؟ الفلوس لي أنا. أنا من يتحاسب. لم أمت بعد حتى يتحاسب غيري. سمعت؟ حتى وإن قالت لك مقبولة أعطني الحساب قل لها المعلم ما بغاش. سمعت؟ وفاتورات محطة البنزين؟ لا تحرج نفسك من أنك أتيت بيديك فارغتين فأنا أعرف أن عندك قفة ذ العيال والتفاح والبنان في هذا الدرج يتعفن. رأيت الزعراء التي ذهبت ولم تعد؟ ما زال بوحناك يشتمني وراء ظهري؟ هل مقبولة لا تخرج من الدار بالليل؟

كان الرجل قد كفكف دموعه وأخذ يبتسم وقال آالشعباوي أنت هنا ما عندك أخبار. الحمد لله مازال تتسمع وتتشوف بعينك

ولكن ما عندك أخبار. الناس خايفة على روحها من الحرب، راه الغازات السامة يمكن توصل حتى للهنا، قوات الحلفاء يمكن تضرب العراق والأوطيلات ربما سوف تغلق والقيامة قايمة. صدام رجل. كن لقيته قدامي نبوسه ونعنقه. زعيم كبير، راه طير النعاس من عينيهم. بوش هذاك القط الشارف؟ يلا قامت الحرب ما بقى لبنات طنجة باش ينقيوا أسنانهم. آبارالبترول مشتعلة وأمير دولة الكويت هرب إلى الخارج. الخليجيون كلهم فالفيلات ديال الجبل الكبير، اللي عنده عشرة اديال الخدامة خلا غير واحد وزاد فيه لأوربا. واحد أعطاني خمسين دولارا حيث هزيته من فيلا دو فرانس لمالاباطا. بغا يسمع سميرة سعيد وقلت له ما عنديش، ولما سمع نجاة اعتابو بقا تيشطح وأنا شايفه من المرايا وهو راكب للورا. كنت غدي نخدم تشوفير معه ولكن احشمت نخلي لك الطاكسي.

أطل رأس مقبولة من الباب وتراجع. بعد حين دخلت جافلة وحركاتها مضطربة ونظراتها إلى السقف وأمسكت رأسها بيدها متظاهرة بالسقوط، ثم اقتربت مني ووقفت بين السرير والنافذة وهي راعشة الأطراف، وعيناها غائبتان، ومن مكان وقوفها اتجهت بنظرتها نحو سريره وشهقت، فعادت إلى الرجل نوبة البكاء. تهاوت الدموع على خديه كالحجارة، وصارت الحجارة مرايا أو شظايا مرايا. تركته مقبولة يبكي ما شاء من الوقت وهي تكرر نفس حركات التظاهر بالسقوط وإمساك الرأس باليدين، وقالت ألم يمت بعد؟ ظننته قد مات، وهتفت للرجل كأنها تشعر لأول مرة بوجوده في الغرفة:

ـ الغزواني. أنت هنا؟ فالصباح تلاقينا فكاسا بارطا. ياك؟

وقال الغزواني:

ـ كنت فالطاكسي. كانوا معايا شي ناس.

وقالت:

ـ كانت معك رحيمو. شفتها راكبة اللورا.

ـ لا. كانت معايا فيفي.

ـ إيوا فيفي عبده. غير خليني ساكتة أحسن ما نقول. أنا فراسي التطويرة. عارفة الخنطقيرات كلهم.

وأدارت سبابتها حول رأسها عدة دورات وقالت:

ـ البوطات الخانزات.

وتنمرت وأدخلت جماع يدها فوق وركها وقالت إيوا رد بالك آالغزواني. ردوا بالكم كلكم. أنا المعلمة. الشعباوي مريض والله يزيد له فالعمر. أنا مولات الحساب. الجنازة عندي فالدار. الناس واكلين شاربين شي جا من الجبل وشي جا من العرايش والقصر الكبير، باكين نواحين، وكلهم طامعين فشي حزقة لا روب من هاد الحزاق المالقي. قال الطاكسيات قال. إيوا صافي. شوف شحال ديال الكسايد والضريبة والسيكور وعاد شوف ليسانس والدعاير والفران احفا والساقطة والباب تهرسات بقوة الزديح. إيوا شف آالغزواني، راه يلامات غدي يخلني راس بلا رجلين، حنش مقطع له الرأس، أخونا. آحبيبنا. آديالنا. الشعباوي راك مقطع لي فالقلب. الجنازة عندي في الدار. كلهم تيبكوا آجارنا فالدوار. آولد عمتنا، آولد خالتنا، آدمنا، واريحة الشحمة فالشاقور. وأقول لهم لم يمت بعد وبكاؤهم لا يتوقف من الصباح إلى الليل

ويسألون أين الكفن. هل نأتي بالسميد لكسكس تبراد الفيسان؟ فين الطلبة يقرأوا عليه؟ شوفي آمقبولة، الجنازة، علينا، احنا أهله وأحبابه، وعيونهم على التليفزيون والفيديو والفوطويات، ودخلوا حتى لبيت النعاس وشافو اللي فيه، واهم يقلعوا اللعلاع من الشراجم ديال الصالون. ما بقا غير يعرفوا آشمن بنك فين عنده الفلوس واشحال. وحشك غدي يقتلنا آالشعباوي آخانا وحبيبنا، ولم أخبرهم بالكلينيكا حتى لا يضربوا الفيلا قدام الباب. فين هو؟ مازال ما مات؟ راهم ينتفوه وينتفوني، ويخرجوني عريانة أنا اللي هزيته وصبرت له على الهبال. كان حجره مريض ومنفوخ وتيسيل بالقيح وأنا هزيته للطبيب. إيوا شني؟ راجلي اديالي. مسكين مريض وغدي يموت.

وأخذت تبكي ذلك البكاء الحارق الذي يرسل الدموع كالمطر من العينين، ولم أعرف أين كانت تخبئ دموعها كلها، تلك التي هطلت من العينين، وكل دمعة كحجر، وكل حجر مرآة، وشهقت، وبكى الغزواني حتى استدر آخر ماء في عينيه، وظل الشعباوي ينظر إلى بكائهما ويبتسم. ولا أدري كم طالت تلك اللحظة ولكن مقبولة أخذت تمسح دموعها بأطراف كم جلبابها. والتفتت نحوي وقالت لي آخاي نسيت، أنا امرأة مفتونة، الفتنة عندي فالرأس. نسيت الكازيطات ولكن سمعت شي حاجة فالأخبار، يمكن شي تقربيلة نايضة، آخاي التقربيلة اللي عندي فالدار أكثر، إيوا شوف، قال خصهم الورث والرجل مازال حي. آالغزواني ردوا بالكم، الحساب معايا من اليوم، أش تتقول آالشعباوي؟

وضحك وقال لهاكلامك كله زين. أنا قلت له، وأنا والله ما نموت. أنا أعطيوني أطيل الموحدين وخذوا الطاكسيات وحتى التشوفرات ديالهم. وضحكت مقبولة وسوت شعرها المصفوف ورفعت أستار جلبابها إلى ما لا تحمد عقباه وقالت للشعباوي خصك شي عايلة تقرفصك آالملعوق، وضحك الغزواني وهو يخفي رأسه بين ركبتيه، وبالغ في الضحك حتى صار يعقعق: عاق، عاق، عاق. واقتربت مقبولة من الغزواني وقالت له أسمعت ما قاله الشعباوي؟ بلغ كلامه لأصحابه. الحساب معايا أنا، بلا تسفيلة، أنا أخرج الفلوس من عينيكم. البنات تأخذهن كل ليلة إلى تلك الأماكن مقابل أجرة دائمة لا تعدها على العداد. لا تظن آالغزواني أنني لا أعرف شيئا عن ليل طنجة. العايلة تأتي من بني عروس بالحايك والطروز والطرابق تبيع الخضر في السوق البراني وبعد شهور تراها ولا تعرفها، البيريه والماساخي وجلسات التجميل. الماسك آخاي. إيه شف، تجار العملة في السوق الداخل وفي باب المرسى يعرفون مقبولة. مقبولة أخرى لا يعرفها الشعباوي، تلك التي تبيع وتشتري في الدوفيز. وقال لها عارف، عارف حتى فين تتخبيه، وبصحتك.

وقالت أنا عيانة؟، رأسي دايخ، البارحة أغلقت علي غرفة النوم وشاهدت شريطا لنجوى فؤاد، كانت ترقص وحيدة وأردت أن أرقص معها ولكن كنت مهتكة، جسدي منهد من صداع البكائين الشكائين الذين لم يناموا حتى أزهقوا روحي. وحق الرب المعبود كنت وحيدة في غرفة النوم. أنا امرأة فنانة، يعجبني الفن، الفن من يعرفه إلا اللي عاش في حماه. يعجبني محمود ياسين ويونس

شلبي، ليلى مراد الله يرحمها، المرأة البدينة تصير رشيقة إذا كانت ترقص. أنا رأيت امرأة بدينة قضوا معها نصف ساعة حتى يدخلوها للسيارة، وجسدها يترجرج، وفخذاها واحد في الخارج والآخر في الداخل، وهم يدفعون من الورك وهي تتوجع، مصيبة. والتفتت نحوي وقالت ها ولد العائلة مسكين شايف وسامع وساكت، مسكين لا يزروه أحد. كلنا غرباء، وأخذت تبكي بدموع حارقة واستبكت الغزواني فهطلت دموعه كالحجارة، تلك الدموع التي سبق أن وصفتها لك أيها الصاحب.

استمرا يتباكيان لبعض الوقت، والشعباوي يغافلها وينظر إلي ويبتسم. وقالت له مقبولة وهي تجفف دموعها:

ـ الكوميسير باغي يشوفك .قال:

ـ اشكون فيهم. فين باغي يشوفني؟ هنا؟

ـ قال لك شي مرسيديس حمراما عرفت مالها.

ـ آه. عرفتها. قولي له يجي.

ـ هو غير تكلم فالتلفون. كنت غدي نقول له يقضي لي شي غرض ولكن هو اقطع.

ـ آاشمن غرض؟

ـ أنت مريض خليك فحالك.

وخرجت إلى الممر فأدخلت في يدها طنجرة بدا من ثقل حملها أنها مليئة، وضعتها بجواره وأخذت طنجرة أخرى فارغة إلا من العظام. وقالت له:

ـ ها الدجاج. ذوق صاحبك.

وخرجت وتبعها الغزواني.

كانت السابعة والنصف صباحا وأنا يقظان أقرأ في الفراش عندما دخلت ساميا الغرفة وتطلعت إلى وجهي كما كنت أتطلع إلى الجرائد التي في يدها وهي مضطربة تنشف عرقا على جبينها بمنشفة كلينيكس. وبادرتني بالسؤال:

ـ هل قالوا شيئا عن صحتك؟

فقلت لها وأنا أطوي الكتاب وأجلس على حافة السرير:

ـ مازلت أنتظر نتائج التحليلات.

ـ كل هذا الوقت؟

ـ والصاحب، أين هو؟

ـ أنت تعرف حالاته المتقلبة.

ـ والحرب؟

ـ نحن مقبلون على كارثة. ها هي الجرائد.

كانت ترتدي فستانا قصير الكمين وعيناها متوحشتان والزبيبة ناتئة على الذقن. أخذت كرسيا ووضعته بجوار السرير فاعتذرت عن الجلوس وقالت موعد الشغل قريب، لا أدري كيف أجد سيارة طاكسي من هنا إلى مكان الشغل، علي أن أحتاط في الوقت. هاك هذا الملف أعددت لك تقريرا شبه مفصل عن تطورات الأحداث في الخليج، كان لي الوقت في الشغل وعرفت أنك هنا في عزلتك، تحتاج إلى مواكبة الأحداث. الصاحب مشغول بقراءة الجرائد وملاحقة أخبار القنوات الفضائية، وصحته تنهار ليلة بعد ليلة، لا ينام ولا يأكل، سوف تدهشك بعض التفاصيل، بديهيات كنا ننساها عادة ربما داخل فوران الأحداث. همت بالجلوس وقالت الصاحب لا يتبادل معي الكلام وأعرف أنه حينما يخرج يصخب ويفجر غضبه بالكلام والثرثرة والاحتجاج. ونحن

لا نتوفر على أسرار هذه الحرب والحلفاء ينظمون خطتهم للهجوم البري. نحن ضحية إعلام يكيف الأحداث والمواقف ويتلاعب بالمواقف والمشاعر وصياغة الأحداث على نحو جديد. العرب في حاجة إلى زعيم، حاجتهم إلى زعيم رمز يوحد مشاعرهم هي التي تقف وراء كل هذا الحماس الكبير والمرحلة تذكرني بحرب السويس والعدوان الثلاثي على مصر وبحرب يونيه وحرب أكتوبر، وإن كانت تفوقها خطورة ولكن المهم هو هذه الحاجة البدائية والرمزية لزعامة زعيم، عبد الناصر، القذافي، علي عبد الله صالح، نور الدين الأناسي. الوحدة والشقاق والحروب العربية وجهة الصمود والتصدي، والآن نحن أمام انتصارات أو أوجاع جديدة؟ صدام الرمز العربي، صدام الأسطورة، اسمه صدام لا تنس الاسم ولكننا لا نعرف هل سوف يصدمنا أم أنه سوف يصدم جبروت الولايات المتحدة بإمكانات جديدة للتحدي ولتغيير الخريطة اللوجستيكية، بغير سند وهمي، في هذه المرة من روسيا أو غيرها. موقف اليابان وفرنسا والصين مختلف، ولسوف تدهشك بعض التفاصيل في التقرير بديهيات كنا ننساها عادة ربما داخل انشغالاتنا بالذات أو خلال فوران الأحداث. هل أطمئن على صبرك وانتظارك؟ لا تخف. الأمراض الجسدية لها علاجها دائما، وفراغات الروح وانشطارات النفس هي التي لا تعالج، الصاحب سيأتي لزيارتك. آه نسيت راديو الترانزستور. نسيت معجون الأسنان، كيف أتذكر؟ الصاحب في خصومة دائمة مع نفسه ومع الناس والعالم وأنا مالي؟ أتركك على خير. لا تخف. اقرأوتسل بمنظر البحر من النافذة. ليس لك شيء آخر تفعله غير هذا.

أنا ذاهبة، سأعود ومعي الترانزيستور ومعجون الأسنان وجرائد أخرى، هل أنت في حاجة إلى شيء آخر؟

ظل الشعباوي يتطلع إليها وهي تتحدث، وحالما خرجت، بدأت أتصفح الجرائد، وقرأت ما في التقرير.

تذكرتها قبل حين وقلت طنجة هي تلك المرأة الزرقاء. كان عمي ميمون ينقل عن الفقيه الرحموني أن طنجة ثؤلول على راحة اليد لا يداويه إلا الحرق. وأنا حين تذكرتها قلت هي طنجة، لم أنسها في يوم من الأيام وهي كائنة في شارع فاس أو في شارع الحرية تعلن حربها مع نفسها ومع توترات وجنون المدينة الذي لا يهدأ، ترسخ في الأرض والتراب وتكبر في الفراغ آتية بزمن الترقب والدهشة والانتظار، تنتظر الفرصة المواتية لتفاجئ العالم بدهشة غير متوقعة.

امرأة من ريح،

ديمة أو سحابة،

نبية وثنية تعشق النار،

وراء أو أمام لخرائط طنجة المنهارة،

شهوة تستحق مجيئها مبكرا في ضحى أو أصيل أو زوال،

امرأة يعرفها الطنجاويون ولا يعرفون أنفسهم، يحلمون بكابوسها الثقيل ومزحها المغيضة وشرودها الدائم.

هي امرأة المهزلة،

تأتي من تاريخ أو زمن غير محتسب.

وانبهاراتها لكل هذا الوقت السرمدي،

هي قوة لحظات هذا الفناء،

في أعنف سويعاتها القليلة الباقية،

ولا شأن لها بذاتها،
كما رياح الشرقي،
شأنها ألا تصنع ضجيجا وجعجعة،
بل أن تذهب مع الريح.
هي نضوب الدم،
الحمى والسهر،
والنارالفاجعة
نارها زهور بيضاء ناهضة من قلب تراب هذه الأرض،
زهور من دم.
الغارات كلها،
والمغارات،
أشباه الزعماء،
التاريخ والأقاويل والأحداث التي لا تبدأ من بدايتها،
مراودات الذات،
أوقات الانتظار، اختراق سجوف الأشياء،
الحنين والذكرى
الأرق والألم
وجرعات كل هذا النسيان
الأسى والوجع وانتظار ربيع الأشياء،
أيام ساميا الطنجاوية،
وليالي مقبولة،
والوقوف على حافة الظل،
وهذا وذاك.
امتحانات الوقت،

الغسق والفلق،
الانبلاج والشفق.
وكل العميان الذين رأوا
والمتصوفة والمجذوبين
وكهنة الغيب
وتجارالعملة في باب الميناء،
كلهم،
ربما لن يأتوا في ميعادهم،
ليستنشقوا هواء الحريق.

ولك يا ساميا، ولي وللصاحب، وعمي ميمون الله يرحمه في قبره، ولأصحاب الكاسادرات، والشقروف التمسماني والشعباوي وللوافدين على طنجة أن ننتظر بعض الوقت لكي نلتقي مع امرأة زرقاء، لا اسم لها سوى المرأة الزرقاء.

وكأنها لا شيء،
سوى وجع من هذه الأوجاع كلها،
عصف ريح صحراوية،
طريدة تشوى على نار،
ولكنها أس هذا المكان
وديمومته،
وانتظاراته.

التمسماني توارى في ظله متسولا بعد أن كان يلعب بالدولارات ويحرقها أمام الناس، وعبد النبي، وعمي ميمون والشعباوي لن يفهم شيئا من هذه الأشياء، ولكنها المرأة الزرقاء،

ولقاؤها ممكن في هجير الصهد أو في زمهرير الشتاء. نلقاها ولا بد أن نلقاها،

بجعة أو غزالة،

نفور تاريخ في اللامكان

قبض عصي على تمنعات اللحظة،

ويمكن أن نلقاها أو ألا نلقاها هي، لتغير خرائطنا، فالزغب لا ينبت في حواصل الطير الجائع، ستقول إنها امرأة بسيطة، جاءت إلى طنجة من حكامة في زمن غير قريب، هاربة من الجوع ومحتمية من ضيم بمدينة هي الأخرى كانت على ضيم، واستجدت في الشوارع وباتت في عراء البحر ورأت وعانت وعاشت، وصارت لذلك الزمن ندوب وآثار، تقول صارت طنجاوية وطنجة الرحيبة تنسي البراني، أنه براني،

هي طنجة بكل احتراباتها

وندوبها الدائمة،

وسهرها وحماها،

وجهها البهي مملح بماء البحر،

يداها معرقتان زرقاوان،

شعرها أزرق

وجلبابها أزرق،

ولا أحد يمكن أن يقترب منها وهي تتجول بين شوارع الحرية وشارع فاس أو شارع باستور، كأنها الجذام أو الجرب، وإنما في ماء البحر كانت تغسل طين جسدها من زرقة البترول، وتتنفس من الموجة، لتعود إلى مكان قريب من محطة البنزين فتستدرج بعض

الأطفال ليشتروا لها بما استجدته علبة صغيرة مليئة بالبنزين، لتر أو نصف لتر، وهي تستدرجهم لذلك لأن عمال المحطة لم يعودوا يثقون بها، ويخشون أن تشعل النار في المحطة، وبعد أن تأخذ العلبة تختفي في خرابة أو دغل صغير أو وراء إحدى حانات الشاطئ، وهي أماكنها السرية، لكي تصب ما في العلبة على شعرها ووجهها وجلبابها، من الرأس إلى القدم، وتؤجل إشعال حرائقها وهي تبتسم وتجول في الشوارع مخبئة عود الثقاب في تكة سروالها، ويمكن أن نلقاها أو لا نلقاها، أو أن تلقانا هي أينما كنا، وهي تحمي المدينة من الغزاة وتصنع سياجات من جسدها الذي صار يكبر ويتعدد، ولا بأس يا ساميا، فهي امرأة تستحق أن تتحدثن عنها في تجمعاتكن النسائية، فلا تقلبن ظهر المجن، أما أنا فلاأدري أكنت أراها تسير ورائي أم أمامي، في تقاطع شوارع طنجة، أو ربما كانت تسير بين سريري وسرير الشعباوي، باسمة لكل هذه الظلال، فالحرب لم تبدأ بعد. هل أصابتني لعنة التقرير الذي قرأت أم أنا في بحران؟ اعذريني، فالخرائط لا بد لها أن تتغير، ولا وجه لهذه المدن ولاعيون ترى بها مانراه. وهاهي امرأة الريح، كأنها تعبر أمامي الآن وأنا أشم رائحة البنزين وأرى زرقة شعرها ووجهها وجلبابها، وأعرف أنها تخبئ علبة الكبريت في تكة السروال. وماذا بعد يا ساميا؟ إذا كانت تحصن كل هذه المدن العمياء بسياجات من جسدها المهيأ للاشتعال، فلماذا لا نفرح بها في سويعاتها القليلة الباقية؟ ستختفي وتظهر ربما، من أماكنها السرية، راسخة في ترابها، فهل علينا أن نحتاج للبحث عنها يا ساميا؟ اسألي الصاحب، فهي تظهر في اللامكان.

العالم على شاشة التلفزيون

احتفال كرنفالي. رقصات وأقنعة ودمى كبيرة الأحجام تمثل رؤساء هذا العالم. وجوه تميل نحو السماء. شهب اصطناعية ربما أو هي شهب القذائف التي ترمي بها طائرات شَبحية والشهب تنير ببارقها الخلب شيئا من ذلك الظلام فتتراءى بعض الوجوه كفزاعات عصافير، وربما كانت أجسادها مصلوبة في الفراغ وأعناقها مشدودة إلى حبال المشانق.

تتغير هذه الأشياء وتتوقف حركة الرقص، وتظهر حقول الذرة وعباد الشمس والحنطة والقمح، وسرعان ما تبدو تلك الدمى التي تمثل رؤساء هذا العالم وهي تتصادم بالرؤوس والأنوف، وخيوط غير ظاهرة تحركها في هذا المسرح الذي هو مسرح الكراكيز، ومع ذلك التصادم تتحطم جباه الدمى على بعضها، ومع المناقرات، حيث تحولت الشفاه إلى مناقير، تتهشم رؤوس الدمى تماما وكأنها كانت تأكل من بعضها فلا تظهر بقايا ذلك الهشيم وهي تسقط على الأرض. حرائق، دخان، أوطان مهجورة. دم وقتلى ومقابر جماعية. قبعات سود وعمائم وأحزمة على الجباه العارية للشمس. مدججون بالأسلحة. أطفال ترتسم على وجوههم الوداعة. نهر مياهه تتدفق. أجساد من رخام أو مذاب عسل وشمع ذائب. مطر وتلألؤ نجوم وربيع أو خريف. عرق جباه. عناقات وتحايا وداع. قيعان ومهاو. ضياع في الطرقات. أشباه مدن كرطونية. موسيقى عابثة. أشجار وظل وريح وهدير بحر. ألوان قزح. نيران تشتعل وأدخنتها تتصاعد في سماء زرقاء. كسرة خبز وطست مليء

بالأرز. طائرات ترمي بالقذائف. أهرامات وكتب مقدسة مرفوعة نحو السماء وآهات وتضرعات.

تتشوش الصورة وتعود لتظهر بوضوح. معالم أماكن أثرية أو هي مدن داهمتها غارات الطيران. كلب يمرغ ذيله في التراب وينبح نباحا حادا وقد بدا عليه التوحش. غيلان وأفاع تخرج من تحت التراب. جماجم وبقايا عظام. وهم أمكنة فقدت أزمنتها وشقوق وتصدعات. رواب محروقة. كنائس ومساجد. رجل وحيد أعزل يصلي على رمال الصحراء.

كنا في سريرنا أنا والشعباوي نتتبع تلك الصور وهو يسوي طاقيته فوق رأسه ويميل مستندا إلى كوعه متظاهرا بالألم، وكنت أتتبع تلك الصور بصفاء ذهني لم يتم لي قبل، أتطلع إلى أن تصفو وتظهر بوضوح بعد أن كانت تتشوش، وأستسلم لها وهي تتدفق أمامي تنقلني من لحظة إلى لحظة ومن مكان لمكان، ولا أدري في فنائي في مشاهد تلك العوالم هل صرت ريحا أم ترابا، أم ديمة تسقي كل هذه الأراضي العطاش، أم أنني كنت واحدا من ذلك الكرنفال المحتشد بالرقصات والأقنعة والأضواء الخلابة وهامات الرجال والنساء، أم واحدا من المتفرجين في مسرح الكراكيز ذاك على تناقر رؤساء دول هذا العالم الذين تحولت وجوههم في نهاية المشهد إلى بومات أو ذئاب أو نعامات وكل ذلك ممكن في بهجة يمنحها هذا الخراب المتلألئ بنجوم سماوية ضاحكة.

ظهرت خرقة صوفي يملؤها الفراغ وهي تنتفخ بالريح وظننت أن الصوفي يسكنها وقد صار لا مرئيا بعد أن ذاب جسده أو توارى

خلف أو أمام اللامرئي، واقتربت من الخرقة التي كانت قريبة مني فرأيتها تبتعد وأخذت مطارق الحدادين تقرع الحديد بالحديد والعرق يتصبب على الجباه والحديد الذي يقرع بالمطارق لم يكن محميا في النار ولذلك فالحديد صار لا يفل الحديد وضجة المطارق تصم أذني وعضلة في ظهري تتصلب والطلقات تخرج من الأسلحة والأغراس طافحة وشموع تذبل وهي تأكل من نفسها كأنها سهرانة على مشهد كل هذه المتناقضات وأراض متربة قفراء وريح عاصفة وهاهي الريح تعصف في الخارج.

عصف ريح طنجاوية لا بالشرقية ولا بالغربية يعيدني إلى مكاني وإلى الشعباوي الذي نما شعر لحيته وأصبح مخطوف الوجه غائر العينين حتى ظننته كائنا من كائنات هذه الصور، واختلط علي ما أراه على الشاشة وما أراه داخل الغرفة، ولما كانت الغرفة أكبر من الشاشة، فقد أخذت كائنات الشاشة وأماكنها الطبيعية تتحرك وتتوسع في فضاء الغرفة، حتى امتزجت بالشعباوي وامتزج بها وصار بالنسبة إلي جزءا من عالم فسيح راحل ومتجدد وباعث على الذهول وامتصاص الوقت.

كانت مقبولة في مساء هذا اليوم قد أحضرت جهاز التلفزيون إلى الغرفة، وبعد أن أطلت برأسها وتظاهرت بالسقوط واقتربت من سريري وكانت تسقط موحية بإغماء مفاجئ عادت إلى الممر وحملته ووضعته على الطاولة قبالتنا وابتسمت وقالت ها هو التلفزيون، سوف أرى فيه كل شيء كما ستريان فيه كل شيء، وقالت جئت به لكي أراك آالشعباوي وأسمع ما تقول، وحتى لا أضيع وقتي مع يونس شلبي ومحمود ياسين فسأضيع الوقت مع

حبيب القلب، السي الشعباوي مول الطاكسيات، وتمايلت بحركة راقصة وهزت وركيها وأخذت تتغنج. وقلت لنفسي ساميا لم تأت بالترانزستور ولا بأس فهاهو التلفزيون في الغرفة ويمكنني أن أتتبع نشرات الأخبار، وأخذت مقبولة طنجرة الدجاج الفارغة إلا من العظام بعد أن وضعت في مكانها طنجرة أخرى وقالت للشعباوي لا ينبغي أن ترى أكثر من اللازم، فلا تنس أن كليتيك ميتتان، وأن الجنازة عندي في الدار.

بعد خروجها أخذنا نتتبع الصور، ولا أدري أكان ما يعرض شريطا أم أخبارا أم أغنية أم هلوسات ووسوسات، أو أن بعض القنوات كانت كلها تدخل في بعضها وتقدم الشاشة صورا مبعثرة من هنا وهناك، من لا مكان، عن كل شيء عن عالمنا وعالمهم، وظننت أن هذا الجهاز قد أصيب بالهذيان، ولم لا؟ هذيان محبب، وصور خرقاء تبثها أصابع راعشة وقلوب مكلومة ربما، وضمائر قررت ألا تتحكم في شيء حتى وهي تتحكم في كل شيء.

شاهدنا صورا عن عميان وطرشان وعرجان يتظاهرون، وطائرات تسقط، ومشهدا للرئيس صدام حسين يجتمع مع أفراد قيادته وهو يبتسم، وأقنعة واقية من الغازات، ومشاتل، وصناعة الحلويات والطارطات وإشهارا عن معجون الأسنان وآخر عن عقار يحارب السمنة ولقطات من مسلسل مكسيكي واجتماعا لرئيسين عربيين وورشة للنجارة يتحدث صاحبها عن المقاولة وتقريرا لمنظمة الأغذية والزراعة وخاصا عن العيد الوطني لإحدى الدول ومغنيا يضحك باكيا في غنائه وقالت لنا المذيعة والآن مع السهرة.

في تلك اللحظة تشوشت الصورة وبعد عودتها من جديد ظهرت كأس وهي تسقط من حافة مطبخ وتتهشم، وسمعنا وقع خطى، ومواء قط هائج بدا أنه هو الذي أسقط الكأس، والخطى ربما تتحرك من ورائه، إذ لم يظهر صاحبها، وبدت أدراج العمارة التي أسكنها واختلط المواء الشبق للقط بسعال السنيورة روسانا بأصوات أخرى متداخلة ومجهولة المصدر، وبقي القط الشبق يموء والسنيورة روسانا تسعل والأصوات الغامضة تصعد أو تهبط على الأدراج حتى ظهرت النساء عاريات في حمام بلدي وساعتها صعق الشعباوي وقال هذا الحمام أعرفه، يمكن في المصلى، حمام رجال ونساء، شف، أنا كنت أتحمم مع الرجال ولكن شف، هو حمام المصلى وقلت له ما الذي تفعله الآن السنيورة روسانا مع ذلك القط الهائج فقال يوجد هذا الحمام في السواني وأنا الآن أتذكر والجلاس الذي يكون في وقت الرجال هو عبد الكريم. آه لا يمكن أن يظهر عبد الكريم الآن، الجلاسة امرأة منحوسة، دائما تقول قليلة الزهر، ولكن من دخل هذا الحمام حتى صور النساء عريانات؟ ولو كانت مقبولة هناك في الدخلاني أو البراني أيمكن أن تظهر عارية في التلفزيون؟ أولاد الحرام. طالق. علي بالطلاق الثلاث لو ظهرت في التلفزيون أمام العادي والبادي. ولكن هي في الدار. شف آصاحبي، شف أخاي. الله على زين عمري مانظرت بحاله. وظهرت نساء في الجلسة يلففن أجسادهن بالفوطات ويجففن الماء والعرق من بين الأفخاذ والأثداء، وعصابات الحرير بادية على الجباه، والضحكات والثرثرات والإشارات للبعيد والقريب، يتعطرن ويسرحن شعورهن، والخدود

موردة، وقال لي الشعباوي هل تشم رائحة القرنفل؟ آويلي حتى الروائح تأتي من هذا التلفزيون؟

وتشوشت الصورة وبعد ظهورها بوضوح رأينا أحياء طنجة، الدرادب والقصبة وبني مكادة وكاسا باراطا وورد أحرضان، والسوق الداخل، وظهرت مقبولة تسير بجلبابها الرماني فقال لي الشعباوي آويلي أين هي ذاهبة الآن؟ شف. إذا كانت هناك فضيحة لا أريد أن تراها معي، الرجل يستر امرأته في كل شيء، ووضع يده على قلبه ولكن مقبولة لم تعد تظهر فابتسم وقال لي يمكن أن تراني الآن أشتري الحوت من البلاصا. أو أن نرى اسطانطو أو الغزواني يسوق الطاكسي، آه ياطنجة الحبيبة.

لكن تلك الأحياء التي ظهرت تجمعت كلها في صورة واحدة وأخذت تعلو وتطير وتحلق زرقاء لا حدود لها وهي تدخل في بعضها وأنوار سيدي بوعراقية تلألئ وجوه الباعة على الأرصفة والذاهبين والآيبين، وأنوار أشياخ الزاوية الدرقاوية ومتصوفيها وأقطابها الربانيين تلألئ تلك الأوراق المختومة بالسر وهي لاتنفتح لأحد لكي يقرأ ما فيها من غير الشرفاء العارفين كما قال أحدهم وهو يظهر على شاشة التلفزيون داعيا إلى اكتناه الشطح الصوفي وقراءة معانيه. وبدأت قراءة الأوراد ومعها ظهرت الأسماك معروضة على النواصي والنساء يثرثرن وقد أطللن برؤوسهن من أبواب البيوت وكالينتي يباع ساخنا في لاطاته التي خرجت توا من الفرن وباعة الحشيش على نواصي الدروب والوجوه التي لم تلتئم جراح خدودها بعد بالكوتشيات والإيماءات والصفير ولغط

الأطفال والإشارات نحو الأعضاء الوسطية التي تعني ضرب الباخا وقاب قوسين أو أدنى وهلم جرا.

وكان كل ذلك ممكنا، فقد ظهرت زواحف ووطاويط وغربان ووجوه نساء عجائز وباعة النعناع والبنوك والقنصليات ووكالات الطيران والحانات وأمواج البحر ورياح الشرقي وهي تهب على طنجة والصخرة التي كان هرقل قد رسم عليها أثر قدمه ورافعات الميناء وبعض الخليجيين بعباءاتهم البيضاء وضريح سيدي بوعراقية وحوانيت الهنود وظهر البوليبار وسور الكسالى ولم يظهر عبد النبي الذي قال عن نفسه إنه العراب وظل الشعباوي يحرك يديه في الهواء كأنه يدفع بالدم فيهما بعد أن صار دمه راكدا في جسده من فرط البقاء في السرير وقال لي آخاي أنا خايف، طنجة والله ما عرفتها، هذي طنجة أخرى، فين أوطيل الموحدين والبنات ديالي؟ وقلت له لا يمكن أن نغير القناة ولكن يمكن أن تدخل قناة أوطيل الموحدين بعدحين إذا كان هناك شيء يستحق المشاهدة، وظهرت بالونات من الهواء رسم عليها العلم الأمريكي وظهر صدام وهو يبتسم ورأينا لقطة عن مظاهرة شعبية في الشوارع العربية وقوات الردع تردعها ثم جاءت المناطيدوظهر تجار العملة يركبونها وهي تحلق على علو وتنحنح المذيع وقال هذه الصورة خارجة عن إرادتنا وضحك فتبعه المصور وهو يزوغ عن مكانه في منصة الإرسال فطلب الموظب أن تقطع الصورة وتغيرت صورة وجه المذيع فبدا وكأنه ديك رومي ثم بدا كدجاجة تحضن على بيضها وبعد حين فقست البيضات وظهرت الصور.

وقال الشعباوي هل بإمكاننا أن نرى الحمام مرة أخرى على الأقل لأن قناعتنا لن ترسو على أوطيل الموحدين؟ وظهر رجل في المرحاض يدفع بقوة الماء ما تركه فيها وذلك الشيء القذر لا يندفع وهو يعاود دفع الماء وذلك الشيء لا يذهب مع البالوعة، وعاد المذيع يسوي سرواله من الخلف ويقول الآن إليكم نشرة الأخبار الأخيرة، ولم تظهر أية صورة وإنما أخذ يتلو علينا سيناريوهات الهجوم البري ويعلن الأسلحة المشاركة في الحرب واستعمال القوات الأمريكية لقنابل أنبوبية رهيبة المفعول، ولما ظهرت الصورة كانت منقولة عن إحدى الصحف وهي تظهر صدام حسين تحت الأرض، الغاز، السلاح الذي يرعب الجنود الأمريكيين، خطوط الحرب، الخوف الغربي الكبير.

وفجأة غاب المذيع وكأنه قد تخلى عن إرسال أخبار النشرة الأخيرة وعاد إلى دفع ما كان قد تركه في المرحاض بقوة الماء بعد أن توفر ربما، وقال الشعباوي أين هو الحمام؟

تشوشت الصورة ولا أدري أصرت في فراغ تلك الغرفة نسرا أو وعلا نافرا أو قبرا منسيا وقبرة ومنارة عمياء وبريقا في عيون الحيتان.

ربما صرت يا ساميا نديما للندامى، أو إنسا يشبه الجن وجنا يشبه الإنس، وتأكدي من أن صورتي على هذه الأوضاع أو غيرها، وحتى صورتي العادية، لم تظهر على شاشة التلفزيون، ولكني صرت طحلبا وقطعة من الزنك، وأوراقا صفراء وأعشابا يابسة تذبل ليل نهار وصرت لا أدري كيف أسدا يزأر في قفصه ثم صرت وأنا جالس على السرير أرقب الشاشة العمياء وصورها

تتشوش والشعباوي يتطلع إلي مذعورا وكأنه قد رآني قد صـرت ما صرت. ثم صرت بائعا لليانصيب أو صدى للأغاني الوافدة من بعيد وصرت حافلة مزدحمة بالركاب وصورة تتشوش على شاشة التلفزيون وقناصا وفارسا أعزل ثم صرت لا شيء.

ظهـرت رياح الشـرقي وهي تحرك أسـلاك الكـهرباء والرايات واللافتات، وسمعنا دبيب بعض الرجال ووقع خطى عسكرية وارتطام بعض الأشياء مع بعضها وأصوات انفجارات. كانت تلك الحوادث كلها كأنها تقع في الممر الخارجي أو في ردهـة المـصحة أو ربما في مالا باطا قريبا من بعض الفيلات الصيفية الخالية في هذا الخريف. لكن الصـور أظهرت لنا سماء واسعة وعصف الريح يتلاعب ببالونات تتفرقع في الهواء ورأينا في السوق البراني حافلات تحترق وعصيا وهراوات تهوي على رؤوس بعض الرجال والنساء والأطفال، وسيارات الشرطة تعبر شارع فاس وشارع الحرية وشارع باسطور وقد تمت وقاية زجاج نوافذها من رشق الحجارة بأسيجة حديدية، وظل الهرج والناس يهتفون من غير أن نعرف بما كانوا يهتفون به، ولكن بدا أن حناجرهم قد بحت من الهتاف.

جاءإلى المشهد بعض الرجال وبعض الأطفال وكل واحد منهم يمسك في يده راية وكأنه يمسك زهرة وألوان الرايات لها روائح كالزهور. وظل الأطفال ينحنون على رايتهم ويقبلونها بعشق ودهشة وولع وكأنهم يحملون قلوبهم بين أيديهم، يذهبون ويؤوبون بين الأحياء والشوارع والدروب، ويتوقفون عند مقهى زاكورة، وقرب رياض الإنجليز وأمام مباني بعض القنصليات، ولما كان الصوت غير واضح فقد ظننتهم يحتجون ضد إعلان الحرب

على العراق، ورأينا خريطة عليها بقع من دم، والحلة والكرخ وشارع هارون الرشيد، وعرفت أنها بغداد، ثم ظهرت البصرة والأهوار والناصرية وعين شنين وأم القصر، ومقر الرئيس صدام حسين تحت الأرض، كما كتب في التعليق، وأضاف التعليق إنه يمكن أن يعيش في هذا المقر خمسة وعشرون شخصا خلال سنة، وبدت غرفة نوم صدام والمسبح والمصعد الذي يربط القصر الرئاسي بالمقر، والصالون العائلي، وقاعة الاجتماعات وغرفة نوم عقيلة الرئيس صدام ومخدع الملابس وغرفة الأطفال والباحة والصالون، وكانت الصورة تتوقف عند كل هذه المرافق، التي هي على شكل كروكيهات وبدت نجوم متلألئة وأضواء خالبة للأبصار وتشوشت الصورة وعاد ذلك القط الشبق يموء على أدراج العمارة وهو يطارد السنيورة روسانا ويتحداها بعينيه النمرتين يهدد بقفزة نحوها حتى ينشب مخالبه في وجهها ويجرح ويسيل الدم، أو يتشبث بها ويجعلها تستنيم له، فلربما بحث عن مكان في جسدها يدخل فيه ناره، وعادت تظهر الخريطة التي عليها بقع الدم والأطفال الذين يحملون الرايات كما تحمل الزهور، وكأنهم يحملون قلوبهم بين أيديهم وخليجيون يوقعون بعض الشيكات في حفل بروتوكول، ومشانق، وأطفال عراة حفاة وعيون وسنى ومشاهد من الحرب العراقية الإيرانية، والخميني يركع في صلاته ويسجد، ومعالم مدن وانحناءات لملوك ورؤساء دول وتقبيل أياد وشرفات ومعابر وصياد يرمي صنارته في ماء النهر وبكاء فلسطينيةترفع بين يديها صورة ولدها الشهيد وياسر عرفات يرفع سبابته ويحركها عدة مرات وما دمت لا أسمع ما يقول فأنا لم أعرف أكان تحريك السبابة بنعم

أم بلا وأغصان نعناع ودمشق وقاسيون وبردي والربيع والخريف والهلال الخصيب ونهر الأردن وجنازة تعبر حي المصلى وشرطي المرور يوقف السيارات لتعبر الجنازة وكتابة بلغة فارسية أو عبرية أو هما معا ومظاهرات وأقنعة واقية من الغازات وتوابيت فارغة من موتاها وأرض صحراوية عطشى وحيات تسعى ووجوه خطباء ليسوا من زماننا وطلقات رصاص، وفجأة رأيت الشعباوي يحني رأسه والرصاصة تخرج من التلفزيون وتصيب مكانا في الجدار، قريبا من قارورة السيروم المدلاة بحبل طبي موصل للمادة إلى وريد الشعباوي، ولكنها سقطت قريبا من سريره، فنهضت من سريري وانحنيت وأزحت طنجرة الدجاج باحثا عنها حتى رأيتها ولما التقطتها أحرقت أصابعي ووضعتها على الطاولة فصرخ الشعباوي.

ـ الرصاص في الكلينيكا؟

ـ عليك أن تنام. لا تخف.

ـ اضرب الجرس، لتأتي الممرضة، وقل لهم أن تأتي تلك التي تبتسم.

ـ لماذا؟

ـ حتى أختبئ في حضنها، حتى أنام في حضنها في هذا الفراش.

ـ ولكنها امرأة لرجل آخر.

ـ في طنجة؟ هذه رصاصة حرب. في الحرب الممرضات يفعلن كل شيء.

ـ الشعباوي. عليك أن تنام. ضع طاقية رأسك على جبهتك وعينيك، وحاول أن تنام.

ـ والسيروم؟

ـ لا تخف. قطراته منتظمة.

ـ هل ينام الناس في وقت الحرب؟ في الحرب الألمانية كان الجنود يذهبون ليلا إلى المراقص والمواخير. هذه حرب، ألا أذهب أنا إلى أوطيل سولازير أو أوطيل الموحدين، لأطمئن على بناتي؟

ـ عندك بنات هناك؟

ـ كلهن بناتي، بنات أوطيل، إذا غبت ولم يصطدن أحدا فمن أين يأكلن أو يدفعن ثمن الطاكسي؟

ـ نم آالشعباوي، قلت لك الطاقية أنزلها على جبهتك وعينيك، ولن ترى شيئا.

ـ والرصاصة؟

ـ هذه ليست رصاصة.

ـ أصاحبي أنا ماشي عايل، كاعمرنا ما شفنا الرصاص؟

ـ انعس، قلت لك.

ـ ما ننعس حتى نشوف أوطيل سولازير، الحي ما عنده غير عينه. والميت مسكين ما عنده عين بها يشوف.

ـ راك شايف.

ـ آش؟ هاد الشي ما فهمت منو حتى خرية. القلاقل.

ـ انعس آالشعباوي.

ـ ومقبولة ناعسة؟

ـ مانعرف.

ـ راها مع يونس شلبي.

ـ يمكن. انعس هذا نص الليل.

ـ وأنت. ما تنعس شي؟
ـ أنا غدي ننعس.
ـ والرصاصة؟ واه. آشني؟ راهم آيضربونا بالرصاص.
ـ هذيك ماشي رصاصة.
ـ وشني هي؟
ـ غطاية اللمبيس.
ـ اللمبيس؟ كنت تتكتب؟ آالعايل؟ آالمسخوط. اكتب لي القصة ديال حياتي.
ـ واخا، حتى للصباح.
ـ نحكيها لك؟
ـ حتى للصباح.
ـ أنا نحكي لك وأنت تكتب. راه غدي نعطيها للنوطير وفيها الوصاية د الورث.
ـ واخا، حتى للصباح.
ـ وعادت تظهر المشانق ومشاهد الأطفال والرجال الذين يجوبون الشوارع والدروب وهم يحملون راياتهم كما لو كانوا يحملون زهورا أو قلوبا بين أيديهم، وظهرت رسائل تمزق وتضرم في مزقها النار، وأحياء بني مكادة والدوادب والقصبة والمصلى ولم يظهر الصاحب حتى أسأله عن الرصاص، وعن ساميا، وعن رياح الشرقي، وعادت تظهر الجنازة والنعش محمول على الأكتاف وشرطي المرور يوقف السيارات العابرة للطرق حتى تمر الجنازة، فاستوى الشعباوي جالسا وقال لي:
ـ آويلي. مت؟ ها هي جنازتي شف.

قلت له :

ـ كيف عرفت؟

ـ انظر. كل الطاكسيات في طنجة تسير وراء النعش.

بهت وصمت لحظة وقال :

ـ شف أنا حي وأنا ميت : والله ما يصوروا مني حتى بينيني.

وظهرت طيور بيضاء تجفل وهي تتوزع في زرقة السماء البحرية، تميل على أجنحتها وتهيم في سماء زرقاء، وأصوات الانفجارات تجفلها، وهي تحلق فوق الخريطة التي ظهرت عليها بقع الدم، وتشوشت الصورة ولما عادت رأيت نفسي على الشاشة بوجهي الذي أعرفه وقد صرت ثعبانا أو جرادة، وطريقا ذاهبا نحو السراب ومنامة ملطخة بالدم وصاحبا وصاحب الصاحب وذبابة ذهبية طنانة وطفلا من أولئك الذين يحملون الرايات وكأنها زهور أو قلوب أخرجوها من صدورهم وقطعة قماش وشرنقة وبيضة رخ ودالية ورابية ورصاصا طائشا وشتائم ،خيطا من شعاع ثم صرت كابوسا وحقلا للحناء وأحراجا للضوء وقيعانا بحرية وصرت أعمى وامرأة وحجرا وربيعا وخمورا في دنان وكنزا مرصودا وراويا للحكايات الشعبية وسريرا فارغا ونكتة مرة وصرت أنا الشقروف التمسماني وأنا عبد النبي عراب طنجة وأنا السيد هرقل وتمنيت أن أصير أنا الشريف العالم سيدي عبد الله كنون ولكن صورته وهي تدخل في صورة وجهي لم تظهر على الشاشة ولما بيته في القصبة ظهر لي عرفت أنها هي الإشارة والبشارة وصرت عاملا في المرسى وسائق حافلة تذهب نحو الجبل وسيفا صدئا مصلتا وجلابة طنجاوية صوفية ووجها عليه ندوب وساقيا في خمارة الجرح في

الحائط واكريمو وعبسليمو كما كان ينادينى الأطفال وأنا أبيع كاليينتي على صفائح خرجت للتو من الفرن في حي المصلى.

كان الشعباوي يغط في منامه، ولكنه فجأة توقف عن الشخير ورفع رأسه نحوي وقال:

- رأيت مقبولة؟

ونظر نحو الشاشة فرآى الجنازة تمر في الشوارع. وقال:

- إذا رأيتها قل لها لم يمت، تلك جنازة حمار.

وقلت له:

- هذه جنازتي أنا آالشعباوي.

فابتسم وقال:

- دلنا على عنوان أهلك، حتى نرسل العزاء، الطبق وفيه السكر والشاي والأرز والجبن والململاظا و...

وسكت حينا وقال لي:

- وهل تركت وصية؟ أوص بشيء آالملعوق، لمن تحب، حتى لا يأخذ مالك من لاتحب.

- لا مال لي آالشعباوي.

- مسكين ساعي؟ واشكون غدي يخلص عليك الفلوس ديال الكلينيكا، هذيك الغزالة؟ سعدتك.

وعاد صوت الانفجارات، فاستوى الشعباوي في فراشه، وهو يتوجع، ورأينا شمعة ذؤابتها تطقطق وكتبا تخشخش وأوراقها تتحرك، وحفيف شجر ونشيش مطر وغابة تهزها العواصف والرعود وانهيارات قناطر ولثمة أراد العاشق أن يختلسها من ثغر المحبوبة، وأدراجا صاعدة وهي تلتوي، وسمعنا من أدراج المصحة

أصواتا مهددة بقطع التيار الكهربائي فلربما كانت الغارات قادمة، وانقطع الضوء وغابت الصور، ماعدا أضواء باهتة كانت تفد من النافذة، رأينا منها طيورا بيضاء تطير.

راحت الطيور البيضاء نحو منتهاها، وشهق ذلك العاشق وهو يرى سقف قاعة السينما يتهاوى فضم المعشوقة إليه واختفيا تحت الأنقاض، ولكنه ظهر وهو يخرج وحده إلى ردهة السينما ويرى ملصقات الأفلام. رجل يحمل رشاشا ويشهره في وجهه وهو يضغط على أسنانه البادية والحقد في عينيه. امرأة تطير بغير أجنحة. مصفحات تعبر مرتفعا. فخذا رجل بين فخذي امرأة وهي تدخن. قبعات سوداء ووجوه متوحشة. حلمة نافرة من نهد ويد تمتد بمسدس نحو الحلمة. يتردد العاشق هل يعود للبحث عن المعشوقة تحت الأنقاض أم يخرج من الردهة إلى الشارع. قطرات عرق تنبجس من جبينه وهو واقف في الردهة وساميا تعبر الطريق وفي يدها دجاجة مذبوحة تظهر من البلاستيك الشفاف وهي تجفف عرق جبينها بورق الكلينيكس وتحاذر أن تفسد زينة وجهها ولربما كانت تذهب نحو الدار أو في اتجاه ربيعها الذي لم يمت.

الشعباوي يصيح ويقول ها هي المرأة التي كانت قد جاءت لزيارتك. ها هي. عرفتها. الزبيبة. وأين هي مقبولة؟ هل ستظهر؟

وظهرت أفاع تطل من بين الأحجار، وآلات تضج كأنها مناشير أو خراطات أو محركات بواخر تمخر ماءً لم نره ولم نر البواخر. وسمعنا لهاثا ورأينا رجلا عجوزا يصعد الأدراج التي هي أدراج العمارة التي أسكنها وهو يدفع قدمه بيديه ويضعها على الدرج الموالي ثم يتحامل على وضع القدم الأخرى على الدرج

الموالي والسنيورة روسانا تبدو نازلة والرجل يحاذر أن يسقط ويتدحرج ولكن السنيورة روسانا تتجاوزه وتصبح من خلفه فتتوقف، ويظهر فستانها الأسود وكعب حذائها العالي وساقاها المشعران وعرق النسا باد وهي تستدير بجسدها نحو خلفية العجوز وعجيزتها تظهر وتدفع به نحو الصعود وهو يحمل قدمه بيديه ليعاونها على أن تستقر على الدرج الموالي، ولما صارت السنيورة روسانا تلهث مثل لهاث الرجل استدار نحوها وأمسك بصدرها وأخذ يتأوه، فأمسكت به وقالت له أنت لاتستطيع أن تهبط أو أن تصعد، ولا يمكن أن تفعل شيئا في الأدراج، هذا إذا قدرت على فعل شيء، وقال لي الشعباوي شف ولد الحرام؟ شف الخانزة؟ الشقروف، وتركت السنيورة روسانا الرجل العجوز على الأدراج وهبطت، فأخذ يحمل إحدى قدميه ويضعها على الدرج ويستقر قليلا وهو يلهث ثم يحمل الأخرى ويضعها على الدرج الموالي، والأدراج صاعدة كأنها إلى عنان الروح.

وظهرت الأبواب، أبواب العمارات والمنازل والغرف والحانات والبنوك والمدارس والوزارات وأبواب المدن والموانئ والمطارات وأبواب البحر والصحراء والجنة وأبواب القلوب وأبواب الكتب وأبواب النساء وأبواب الليل، وكانت كلها تصفق صفيقا ضاجا ودفتا كل تلك الأبواب تلتقي وتتباعد. وظل رعب صفيق كل تلك الأبواب يأخذنا لبعض الوقت والشعباوي لا يستطيع أن يتكلم أو يقول أي شيء، وبعد أن توقف صفيق أبواب كل تلك الأشياء تشوشت الصورة وقال لي الشعباوي:

ـ شف، الآن تظهر مقبولة، عندها الجنازة ف الدار. قالت.

انظر أين ستظهر، هل في الدار أم في صالون الحلاقة.

وقلت له:

ـ يجب أن تنام

ـ قال:

ـ شف، قطرات السيروم، هل توقفت؟ أنا دائخ.

ـ لا تخف. القطرات منتظمة في نزو لها.

ـ والرصاصة. هل سيضربوننا بالرصاص؟

ـ قلت لك لا تخف.

ـ وهذه الأبواب، ألا تتوقف عن التصفيق؟

ـ توقفت.

ـ وجنازتي؟ وذلك الشرطي الذي كان يوقف السيارات لكي تمر الجنازة!

ـ تلك جنازة في التلفزيون. وها أنت حي.

ـ والشقروف الذي يصعد الأدراج، هل وصل إلى شقته؟

ـ لا أعرف.

ـ وحمام النساء ألا يعود ليظهر؟

ـ ربما، قلت لك حاول أن تنام.

ـ وأوطيل الموحدين؟ آويلي سوف تأتي تلك الممرضة العبوس، ها ورقة مائة درهم تحت الوسادة. قل لها أن تطفئ الضوء وألا تطفئ هذا التلفزيون.

وأصعد الطنجرة من الأرض إلى ما بين ساقيه ورفع عنها الغطاء وأخذ يلتهم من الدجاج، ثم أكل تفاحة، وتجشأ، واستعاد بالله وتشهد وقرأ آية الكرسي، وسوى الطاقية على رأسه ومسح يديه

بالفوطة التي يضعها على عنقه وتحسس وسطه وقال أنا قائم حشاك، وأنت رجل مثلي، هل نحن في الصحراء؟ الواحد يدفنه في الرمل الساخن، إذا كان هذا الفراش من رمل. وقل آخاي، آصاحبي أنت مزوج؟ عندك صاحبتك، النوبيا أديالك؟ تتعمل التقشيرة؟ أنا ما تنحملها شي. قالوا السيدا قالوا قالوا. شف آخاي. ينظر الله تعالى في ملكه، ويتوفاهم حيث يشاء. شف هاد التلفزيون مالوا؟ انغز شي نغيزة. حرك. مولات التبسيمة. الفرميرا، أعجبتني. والله حتى نتزوج بها ونديها للحج ونقبط أنا وإياها فالشباك ديال لالة مكة أعزها الله، ونثقل يديها وعنقها بالذهب. مقبولة راها غير تتحلم. أنا عندي النوطير. جقحة شارفة هارفة. شقروفة. الرجل عمروا ما يكبر إلا على طاعة الله ورسوله. الرجل. شف أخاي هاد التلفزيون مالو؟

وعادت الصورة وعادت الأبواب كلها تصطفق مع بعضها، دفات أبواب العمارات والبيوت والغرف والبنوك والمدارس والوزارات تصطفق وأبواب الكتب وأبواب الليل وأبواب الموانئ، كان لاصطفاقها صوت كأنه صعق أوضرب بالعصى على الرأس، والصفيق يصم الآذان، وأنا أرى نفسي وقد صرت جزيرة بكرا ونداء على طرف لسان أخرس، وحكاية منسية ونحلة أو نخلة وحيدة في صحراء لا حدود لها وبرزخا أو بابا من تلك الأبواب التي تصطفق وقبرة أو مقبرة وضريحا منصوبا في العراء أو مغارة من تلك المغارات. وصهدا أو وردا و دموعا للصبيان وجرحا على خد أو جرحا في الحائط ومتاهة وريحا عاصفة ومغارة من تلك المغارات.

سئم الشعباوي من صفيق الأبواب وما عاد الصفيق يرعبه، وظهرت البحيرات والقيعان البحرية والبواخر الغارقة والأحراج والكهوف والأسماك والحيتان، ثم انقطع الشريط وظهرت المذيعة المألوفة بوجهها وابتسامتها على شاشة التلفزيون وهي تعلن عن أسفها لهذا العطب التقني، وانبعثت الموسيقى كأنها قادمة من قارب نشوان وبعد حين ظهر القارب في البحيرة وهو يتمايل، ولكن الغرفة امتلأت بالدخان، وكان دخانا كثيفا، فأخذت أنا والشعباوي نسعل سعالا حادا ونحن نكاد نختنق، وضغط على الزر، وبعد لحظات جاءت الممرضتان العبوس والبشوش وأشعلت إحداهما الضوء، وتعاونتا على تمديد جسده على الفراش، ولم تلتفت أية واحدة منهما نحوي، وقال الشعباوي:

ـ ما هذا الدخان؟ هل هناك حريق؟

فابتسمت البشوش وعبست العبوس، وبدا عليهما أنهما لم تكتشفا أي دخان. وبعد أن جست إحداهما حرارته قالت للأخرى:

ـ الإبرة.

فخرجت البشوش وبقيت العبوس، ولما التفتت نحو الشاشة رأت نفسها تظهر وهي واقفة بجوار الشعباوي، فزاد عبوسها ودخلت البشوش وهي تدفع طاولة متحركة على عجلات واستمال الشعباوي وهو يتأوه فحقنته بالحقنة ورأت نفسها وهي تحقنه على الشاشة ورأت العبوس وهو يدس في يدها ورقة مائة درهم بعد أن أخرجها من تحت الوسادة وقال للبشوش:

ـ هل تريدين أن تسهري معنا لتري نفسك في التلفزيون؟
فابتسمت وقالت:
ـ أنا في الشغل، وأنت يجب أن تنام.
ولما خرجتا رأينا مغنية تغني وهي ترقص، فاستبشر وجه الشعباوي وسمعنا ضحكات سكرانة وهديل حمام وخطبا حماسية تشهر بالعدوان على العراق وارتجاف أوراق كتاب وخفق نهد وعاد دخان يملأ الغرفة فأخذ الشعباوي يسعل وظهر زلزال وهو يدك إِحدى المدن والعمارات تتهاوى والوجوه مطبوعة بالأسى. وبعد حين ظهر الغيم في سماء تنذر بالمطر، وأجساد معطوبة ووجوه جنود أمريكيين يبتسمون وكتابات على الجدران، وأطفال يصطادون بالصنانير على حافة الموج ورجال يقرأون اللطيف وهم يرددون اللهم يا لطيف الطف بنا فيما جرت به المقادير وهمسات ووشوشات وجرائد مفتوحة وريح وشجر وحجر وتراب وأراض محروقة وصهد وورد وحناء وزليج أندلسي وأعراس وجنائز وأطباق أطعمة وباعة النعناع والخس والفجل وظهرت أمي وهي تطبخ الطعام في دارنا القديمة بحي المصلى ويداها معروقتان وبقع الكبد بادية بجوار تلك العروق النافرة، ووجهها مغضن وفوداها أشيبان، وهي تبتسم لنفسها وتكلم أحدا لعله الوالد حتى وهو في قبره، أو تكلم إِحدى الجارات وهي لا تظهر معها في الصورة، ونهض الرجل الذي يشرب الشاي في المقهى فاقترب من تحت شجرة ونزع حذاءه وتشهد وصلى راكعا وساجدا وبعد سجدته الأخيرة سبح الله وسلم وأخذ يدعو على الماريكان وحلفائهم بالفناء والثبور ويدعو الله أن ينصر صدام على أعدائه وأن يجعل

كلامه على قدر ذراعه وإنا لله وإنا إليه راجعون. وظهر السيد هرقل يرقب مدينته المحروسة بمغاراته وعينيه، وهو يجول في الشوارع متنكرا ويستقصي الحال والمآل. وظهر عبد النبي المقعد، يجلس في كرسي الإعاقة أمام سور الكسالى، وانتظرت أن يسقط المطر بعد ذلك الغيم ولكن الغيم ربما كان في سماء أخرى غير سماء طنجة.

فسد الهواء في هذه الليلة وارتفعت الحرارة في الغرفة فما عدنا نكاد نتنفس، وعم جسدي عرق فوار تنزه المسام وكأني في حمام.

فتحت النافذة فوفد الهواء حارا وفاسدا تكلست فيه روائح معدنية لعلها روائح الأرض تفوح من بواطنها أو هي إفرازات المعامل وصلت إلينا إلى هنا رغم بعد المنطقة الصناعية.

الجهات تقترب من بعضها أيها الصاحب، ولو على بعد. تتذكر نقاشاتنا مع الوحدويين والبعثيين، ناصريين أو قوميين ورغم ما قلناه فالجهات تقترب من بعضها، والهواء الفاسد في طنجة، في هذه الليلة بالذات، لا شك أنه عكر وعطن في مدن أخرى. لسنا قادة لنفتح أبواب السجون ونشيع فضاء الحرية والديمقراطية، ومع ذلك فإن هذا الهواء الفاسد في المدن قد يخلخل هذا الثبات في زمن تاريخي طال وسمه بنفس السمة. وما مناسبة هذا الكلام الآن، والهواء فاسد في طنجة وفي سواها من المدن، من البحرإلى البحر، من الماء إلى الماء؟ بالرغم من أن العبارة قد أصبحت مستهلكة وفقدت إشعاعها وإيحاءها الخاص، فماذا أقول: من المحيط إلى الخليج؟

ولماذا أنبش في قبور الأفكار الآن؟ هل أنا عاطل عن التفكير في خصوبة اللحظة ودمويتها أنبش في القبور؟ توزعت الأماكن وها

هي الجهات تقترب من بعضها، بعد على قرب، وقرب على بعد، ولا أعرف أين أنت الآن، أفي المكان أم في جهات المكان أيها الصاحب. ها قد رحت إلى تلك الجهات وتركتني وحيدا. وقفت بجوار النافذة أرقب أضواء بعيدة تلوح على تلك المرتفعات، أولي ظهري للغرفة ولسرير الشعباوي، أكبح رغبة في أن أخرج إلى الممر وأهبط الأدراج نحو الردهة باحثا عن أحد ربما تكون في جيبه علبة سجائر يعطيني منها واحدة، حارس من الحراس أو شبح أو أحد أولئك الذي رأيناهم على شاشة التلفزيون، فقد غدا من الممكن أن يتحول كل ذلك الحشد في الردهات والممرات بعد أن ضجروا من البقاء في الغرف خرجوا باحثين عن سيجارة مثلي وعن مطر لم يهطل بعد ذلك الغيم الذي دمدمت به السماء.

خفت أن أهبط الأدراج وأقع في مصائد تلك المجرات التي يستدعي فتحها قدرا من الدهشة لمواجهة بدائية الموت، موتي أنا أو موت الصاحب وصاحب الصاحب، موت غير منتظر قريب الحدوث ولكنه منتظر لما يسكننا من شهوة للحياة. وأي حياة؟ كأني في صقر أو في عالم اليوتوبيا أو الريح نفسها تلك التي تدفع من خلف وأمام هي التي تدفعني لكي لا أقوى على ملاحقة طيف أو خيال أول لحظة من الطفولة أو حتى وجه أمي الهارب مني أبدا أو مغارات طنجة التي دخلتها، وما عاد بإمكاني أن أخرج منها. هل كان بيت الموتى مغارة من تلك المغارات، أم أن مغارة الحرب التي أصبحت ممكنة هي مغارة كل العرب؟ أهو بدء ذواتنا المهيضة الأجنحة أم هو انكسار آخر يضاف إلى كل تلك الانكسارات؟

تعال أيها الصاحب صاحبني هذه الليلة. فأنا أقف بين باب وباب.

أعرف أن صدرك عار وقلبك نظيف أبيض ولكنك مثلي مسكون بالأوهام والأحلام.

الديناصورات، والأحصنة النافرة والشموع والقناديل التي كانت تسهر على لياليك.

وهم سريرك المشتهى،

نارك الرائعة التي تنشر حدائقها في المكان،

اللوحة التي على الجدار، فوق مكان الرأس، وقشورها الجيرية المنذرة بزوال محتمل.

كلها أوهام، رجل خارج من السجن إلى سجن، ومن مقبرة إلى مقبرة ومن طنجة إلى طنجة. وهذا أنا وهذا أنت أيها الصاحب، وماذا لو انقرض تاريخ كل هذه المدن التي فسد فيها الهواء، وعادت إلى رماد فنائها؟ وما من طنجة سوى طنجة سواء أفسد هواؤها أو أخذتها الظنون نحو الأقاصي أو رمت بها الريح. زيتونها الأسود وجبنها العربي، كما كان عمي ميمون يسميه، هما طعام الصباح والمساء، وبرزخها هو برزخ كل هذه الأرواح، بيوتها من طين وحجر، عالية كما لا يكون العلو، وهرقل، عملاق أسطورتها، إنما أراد أن يخفي وجهه عن الناس وألا يظهر إلا متنكرا أمام الأسواق والباعة وصخب الأرصفة، فساد هوائها من فساد هواء المدن .فما تراها إلا عمياء ومبصرة، تزحف على الرمل نحو حد الماء لتغسل جروحها في ماء البحر. وهل نسيت طنجة أيها الصاحب أنها البلوى والشكوى وكل النعاس والأرق والسهر؟

تحيرت الدروب بي في هذه الليلة وصرت لا أدري أين أنا أفي عطش المدينة وظلمائها أم في هذا الهواء الفاسد الذي صار يخنقني وهو هواء كل المدن. وما بي أحتار أنا صاحب اليقين؟ ولو سمعتني ساميا أقول هذا الكلام لقالت لي أما كنت تختار؟ أختار ماذا يا ساميا؟ وهو هناك أحد لا يحتار قبل أن يختار؟ ماء ودم المغارات كانا ينسجان من سهرهما بعض الظنون والأقاويل وكنت أجذف في سهري وجنوني وتجلياتي وأشعر بضياع بعض الحقائق فلا شيء سوى الماء والدم. وظننت أني سأموت من غم وكدر ومن ضيق المكان على اتساعه ولم أمت وبقي الغم والكدر. وفي هذه الليلة لست أخشى أن أموت من المرض ولكن ما يبعث في القلق هو أن أموت دون أن أرى خرائط العالم وهي تتغير، خرائطنا نحن، وبنياتنا الذهنية، وسقوفنا الإسمنتية التي تضغط على الروح والجسد وتخنق الهواء ليصبح فاسدا في المدن. ولماذا سأموت؟ هل أنا سأموت أيها الصاحب؟ أعرف أنني أضيع كثيرا من الوقت في المصحة وقد أصبحت الفنادق وغرف النوم ومكاتب الإدارات كلها مصحات للدوام. أشاهد حالات المرضى الحقيقين هنا وأخجل من وجودي بينهم، أسمع عن عمليات جراحية كل يوم، وأرى نفسي جسدا منخوبا أو شجرة جوفاء، وكل الأشجار الجوفاء ماتزال واقفة ربما لأن جذورها هي مركز الحياة. ألا قل لي أيها الصاحب، هل شاخت التنظيمات الحزبية والإيديولوجية العربية إلى هذا الحد؟ لماذا؟ أهو قهر السلطة أم تغير تلك الخطابات التي فقدت حرارتها وما عاد بإمكانها سوى أن تتدجن؟ لا أدري ولكن ما عادت لأحد اليوم قضية يدافع عنها، وأبناء هذا الجيل

الجديد لا يعرفون أي شيء عن أي شيء. اسألهم عن لينين أو ترتسكي أو ريجيس دوبريه أو ليش فاليسا فسيقولون لك ربما هذه أسماء مغنيين لا يعجبونهم. لأن غناءهم لا علاقة له بالتيكنو. هل لدينا اليوم زعماء، مثل علال الفاسي والمهدي بنبركة وعلماء مثل سيدي عبد الله كنون؟ في الأراضي البور لا يمكن لأحد أن يزرع شيئا. ومالك تضحك أيها الصاحب؟ هل أنت ساخر من ديناصوراتك التي ما كان بإمكان طينها أن يتحمل كل تلك الشقوق وبكل ذلك الوقت؟ اضحك أيها الصاحب، لو رأتك ساميا تضحك لقالت إن يهوديا اليوم قد مات، ولعلها الآن تنسى يوم تركت كارسيا لوركا قتيلا في الفصل الدراسي مع آخر ما قاله مدرسها السنيور خوان. ولا بأس فما كان الهواء فاسدا إلى هذه الدرجة، وها كل جسدي ينز عرقا، وأنا أختنق وأشم الهواء الوافد من النافذة وأختنق بذلك الهواء، وكيف أرقب هذه الأضواء التي تلوح من بعيد، وكأني أرقب مدننا مهجورة لم يساعدني النسيان على تذكرها؟ لماذا أبقى هكذا وقد نسيتني هنا أيها الصاحب؟

ظل الشعباوي يغط في نومه، وامتدت يدي إلى الملف فوجدت أوراقا أخرى لم أنتبه إليها، ربما من فرط ما فجعتني تلك الأوراق، أو لما كان يشغل الغرفة من ضجيج بسبب مجيء مقبولة والممرضة العبوس والأخرى البشوش والصور التي كان يظهرها التلفزيون.

الأوراق ها هي، وأخذت أقرأ، غامت عيناي وكأني ما كنت أقوى على متابعة كل التفاصيل، وكنت في سياحة في أراضي النار

والحرائق ومزايدات أصحاب القرار العسكري، أصابني الدوار ونز من جبيني عرق بارد، وأصابت أطرافي رجفة وكابدت على القراءة.

ساميا أنا على وشك أن أصاب بالانهيار. ماذا تفعل إحدى الممرضات إن أنا ضغطت على جرس النداء؟ ستأتي بعد حين من غير نداء وستشعل الضوء وتجس حرارتي وتنظر إلى عيني بعد أن ترفع الجفنين، وستفعل نفس الشيء مع الشعباوي وتنسحب تاركة الباب من ورائها مفتوحا. لا أحد يمكن أن يرى موته مع هذا الانتظار، عودة الروح ربما، أو هو تجلي بعض الأوهام.

ساميا أنا في بحران. اعذريني. لا تأخذي هذا الكلام على محمل الجد، فأنا راغب وعاشق وربما لا تطاوعني لغة الوصف، أنا مشفق على نفسي وعلى هذه الانتظارات كلها، فهل أنا وهم كهذه الأوهام أو حرب كهذه الحرب أو سراب؟

كنت مستغرقا في القراءة حالما سمعت الشعباوي يصرخ ويقول لي:

- ها أنا، ها هي، شف.

ولم أرفع نظري عن الأوراق وقلت له:

- شف انت. أنا مشغول.

واستبد به الجنون وهو يصيح:

- آخاي. شف. شفها.

ولم أرد، فعاد يلح:

- شفني. أنا تنظهر فالتلفزيون. آويلي شف.

ولما رفعت بصري نحو التلفزيون رأيته على الشاشة جالسا في الصالون الذي هو ربما صالون بيته، يرتدي عباءة بيضاء فضفاضة

مقبولة تجلس بجواره تشنشل بالدمالج التي في معصميها وهما صامتان، يتنحنح، وهي تدير عينيها في محجريهما وتنظر إلى السقف وإلى الأرض. السقوف ملبسة بالجبس والزرابي على الأرض وكؤوس البلور في الرفوف. قال لي وهو ممدد على السرير:

ـ ها أنا سأقول لها طالق، علي بالثلاث. وظهر على الشاشة وهو يبتسم ويقول لها:

ـ سوف نتعشى في مطعم يعجبك.

وقال لي:

ـ في المطعم سأقول لها. لتدر وجهها للخلاء، أو للحريكة الكحلا.

وهي تدير بؤبؤها في محجريهما وتقول له:

ـ أريد تكشيطة جديدة.

وهو يقول لها:

ـ تلك الخوابي هل أملأها بالسمن والعسل والزيتون أم أملأها بالخمور؟

ويلتفت نحوي ويقول لي:

ـ أعرف أنني سوف أملأها بالخمور ولكني فقط أتسلى بضياع الوقت معها.

ورأيته يقول لها:

ـ نسيت متى تزوجنا؟ التاريخ في الصداق. قومي جبيه من الخزنة.

وتقول له:

ـ لاش؟

ـ اليوم عيد زواجنا. الناس المتحضرون آالكلبة آالخانزة يحتفلون بعيد زواجهم.

ـ إيوا التكشيطة الجديدة.

ـ قومي جيبي الصداق.

ـ لاش؟

ـ باش نتأكد.

ـ أنا نسيت فين هو.

ـ فالخزنة.

ـ ويلتفت نحوي ويقول لي:

ـ غدي تشوف الرجال آش تيديروا، نتعشى معها فشي مطعم وغدا فالصباح من هنا للعدول.

ـ وقالت له:

ـ والمضمة ديال الذهب. نسيت آالشعباوي.

ـ وقال لها:

ـ غدا فالصباح نمشيوا لسوق الذهب.

ـ ياك ما تنساش؟

وقال لي:

ـ راك عارف سوق الذهب فين جا. عند العدول.

وقال لها:

ـ ما ننساش.

ـ وقرص فخذها فابتسمت وتأوهت وتحركت بجسدها حركات ملسوعة وهي تقول:

ـ آي. آيما. الله يعطيك الخلا.

ـ واستنامت فاقترب منها وقال لي :

ـ لا حياء في الدين. في الصالون أو في الحمام أو في غرفة النوم كل واحد عنده اللذة ديالوا. ومع كل عايلة عنده اللذة ديالوا.

وأخذ يحضن جسدها وهي تتنطع وتحاول الإفلات منه وهو يحوط وسطها بذراعيه فأردت أن أخرج من الغرفة ولكنه قال لي :

ـ غير خليك. تفرج مع راسك. دابا تشوف، راها غدا عند العدول.

ـ وأنزلها إلى الأرض فظهر فخذاها عاريين وقالت له :

ـ التكشيطة والمضمة ديال الذهب.

ـ فقال لها :

ـ واخا.

وصعد فوقها فقالت له :

ـ زد.. زد شويا

وصاح :

ـ أيما الكلاوي.

ـ فقالت له :

ـ يلا كان هايدا غير سر لأوطيل الموحدين. ما عندي علاش نخاف.

وقال لي آصاحبي، آخاي، أريد أن أرى قبري. الجنازة لم تصل إلى المقبرة، وكنا نرى ذلك الشرطي يوقف حركة السيارات لتمر الجنازة ولكنها لم تصل إلى المقبرة. أنا غريب. أنا براني. ولكن قبل أن أرى قبري أريد أن أرى عدادات الطاكسيات

وأحسب بنفسي. كلهم سراق، هذاك الغزواني عنداك تشيق بدموعه. راه مع مقبولة فالخواض. وحتى اسطانطو راه معها فالخواض أنا عايق ولو كان هاد التلفزيون دابا يظهر لنا راك تشوف. وأنا علاش تنمشي لأوطيل الموحدين؟ عندي البنات ثمة تيجيبوا لي الأخبار ديال طنجة كلها. مسخوطات، زوينات كلهم، واحد الزوينة مسمية مريم رانا بغيت نشوفها، توحشت لها، آصاحبي قل لهاذ التلفزيون يظهرها ونعطيه ألف د الريال. خمسين ألف فرنك، ويلا ظهرت عريانة نعطيه ألفين دالريال. بغيت نشوفها فالحمام والماء سخون هابط على شعرها وصدرها وأكتافها. وقبل أن أرى قبري أريد أن أرى مقبولة في صالون الحلاقة في هذا التلفزيون وأسمع الكلام بنفسي ونعرف فين تتمشي وفين تتجي لكي لا يبقى على البنات لوم.

وقلت له أنا أريد أن أسمع وأرى أخبار الحرب. فقال لي أي حرب؟ دعك من السياسة فرجالها يقدرون عليها أولا يقدرون، ولذلك ينهزمون أو ينتصرون. ومالنا نحن؟ وصدام حسين هل يقدر على الحرب مع أربعين دولة؟ كان عليه أن يأخذ تلك الدول واحدة بواحدة، وإذا كان فحلا إلى هذه الدرجة هل يمكنه أن يأتي أربعين امرأة في وقت واحد؟ حتى هارون الرشيد لا يقدر. أنا لا أقدر. كنا في الحومة إذا جاء عدد لمحاربة الواحد منا نستلين الجماعة ونشغلها لبعض الوقت حتى ننفرد بأفرادها واحدا واحدا، ونريه من أين يبول الحوت، وهذه هي السياسة، تعلمناها في الدوار مع البغل والحمار إذا حرن, وتعلمناها في حومات طنجة، تعلمنا الضرب بالكوتشيا لترك ندوب على الجباه والخدود

لا تمحي. ولو تعلم صدام حسين الضرب بالكوتشيا لكان ذلك أفضل من الغازات السامة. أنا عايق. عنداك يحسابلك حمار؟ ولكن آخاي، غدي نعشيها فالمقابر. ياكماثقت. إذا تأكد كلام البنات سأرسل لها من يجرح وجهها بالكوتشيا. أعرف أنها تبيع وتشتري في الدوفيز مع تجار السوق الداخل وباب المرسى، ولكن هذا الشعباوي؟ أنا جبتها من الجبل وصرتها على كتفها، شف ها هي صارت تتاجر في العملة مع رجال السوق الداخل وباب المرسى، ولكن خلينا. خلينا نشوفوا.

وفي تلك اللحظة التفتنا نحو الشاشة فرأينا صنبورا يتدفق منه الماء ويدان تفركان صابونة والرغوة تملأ الحوض، وظهر لنا وجه مقبولة على المرآة، تلف رأسها بفوطة وتمرر أطراف أصابعها على وجهها.

وقال لي؟

ـ شف، فين الجنازة اللي عندها فالدار؟

ورأيناها تخرج من غرفة الحمام وتذهب نحو الصالون، مرتدية منامة شفافة تظهر تقاطيع جسدها، وظهرت لنا من الخلف، وهي تهز عجيزتها، فقال لي:

ـ الله الله. دابا خصني نطيحها فالفراش.

ولما جلست على الأريكة أشعلت سيجارة ونفثت الدخان بقوة في الهواء ونظرت نحونا وقالت له دابا أنت ميت آالشعباوي، كليتاك ميتتان، من الكلينكيا للمقابر، أنا طالق آالولد الحرام؟ أنت سترسل من يجرح وجهي بالكوتشيا؟ تسمع كلام العايلات اصحاباتك وتقول ستطلقني. ياك آالشقروف؟ إيوا مت. أنا ما

عندي جنازة فالدار، أهلك طردتهم كلهم وقلت لهم عملوا له الجنازة عندكم. إيوا كش وكشيتهم بحال الدجاج. أنا ضيعت شبابي معك. ومن هي الخانزة مريم؟

وقال لي :

ـ آويلي سمعت كل شيء

وقالت مقبولة

ـ التلفزيون أنا اللي جبته، تشوف العمى آلشقروف

وقال لها :

ـ أنا ماشفت والو. غير بغيت نشوف.

وقالت له :

ـ مت. مت فالكلينكا آولد الحرام.

وقال لها.

ـ وشكون يجيب لي الدجاج؟

فقالت له :

ـ تأكل السم.

وتشوشت الصورة وغاب الصوت ثم ظهرت المذيعة المعروفة بابتسامتها وألوان لباسها الزاهية وهي تعتذر عن هذا العطب التقني. وظهر جوق السلام الملكي يعزف موسيقى الخمسة والخمسين، فقلت لنفسي هل هناك مناسبة رسمية أو عيد وطني؟ وظل العازفون على الآلات النفخية يتباهون بملابسهم الحمراء المطرزة الفضفاضة. ولما التفت نحو الشعباوي وجدته يغط في نومه وسمعت نجاة الصغيرة تغني :

الحب في الأرض

بعض من تصورنا
لو لم نجده عليها
لاخترعناه

فهفوت نحو الشاشة بنظري متطلعا إلى رقة الصوت وقامة نجاة وعينيها المغمضتين وسحرها، وفي تلك اللحظة انقطعت الأغنية وغاب كل شيء.

عندما نام الشعباوي وارتفع شخيره ظهر الماء والعشب الأخضر، وماست طيور في سماء، وأبراج عالية وجاءت التوابع والزوابع وانحسر العالم على اتساعه في أضواء صغيرة كانت كالشهب تبدو وكأنها تقذف بعضها ببعض، وظهرت تماسيح تفتح أفكاكها وبوم ناعقة ورسائل تحترق ومويجات تتدفق على حد الرمل.

تنامت ونهضت لإطفاء التلفزيون منتظرا مجيء الممرضة العبوس أو الأخرى البشوش لتشعل الضوء وتجس حرارتنا أنا والشعباوي وتنظر إلى داخل العين بعد أن تقلب الجفن، ثم تطفئ الضوء وتخرج ولكن حال وقوفي ظهرت سامْيا تستريح وحيدة على ذلك السرير الذي أعرفه، وهو القبر المشتهى، وكانت تدخن وتطفئ عقب السيجارة في المنفضة ثم تشعل أخرى وتقلد صوت الصاحب وهو يقول لا أحد يدخن في غرفة النوم، لأنه يستمر في التدخين وهو نائم، وعاد إليها صوتها وقالت أنت لاتدخن إلا في مكان واحد هو الحمام، ولو عدت إلى بطن أمك الله يرحمها لأخذت تدخن وأنت في الرحم، أنت من يقول هذا؟ وفي تلك اللحظة تشوشت الصورة حينما عادت ظهر باعة السجائر على النواصي وقبالة أبواب المقاهي.

ـ هالكارو، ها مالبورو، السويلطو.

وظهر ماسحو الأحذية يقرعون صناديقهم.

ـ تسيري

وظهرت المراقص والمراحيض والداخل والخارج والمعابر وباب المرسى وسكة القطار، وأدراج الماريكان والسينما القديمة وقد تحولت إلى مطعم فقد ظهرت صورة السينما وصورة المطعم وبدا مطعم أليسيا مغلقا وقد علا بابه الغبار والفنادق الرخيصة وزنوج يسهرون عند أبوابها في انتظار تسللهم إلى إسبانيا ربما وخادمات المطاعم يسرعن الخطى للعودة إلى بيوتهن ومقهى الرقاصة كما كان ثم ظهر كما صار ومقبرة الكلاب والقطط والمقابر كلها والصيف والشتاء والريح تمحو الخطى على شاطئ طنجة والسيد هرقل يجول متنكرا وأدولفو يكشف عن زنديه الموشومين ويقسم أيام السنة على الليل والنهار وهو يعد على رؤوس أصابعه وباعة الكالينتي في حي المصلى وباعة السمك وظهر القطران ينسكب من برميل وهو مخثر ولكنه صار ذائبا ولينا فانتشر على الأرض وغطى الصورة والشاشة فظهرت سوداء وفاحت رائحة القطران في الغرفة.

ساميا تستريح على ذلك الفراش وتنظر جهة المدفئة، وسمعتها تقول قطران! أي قطران غير هذا؟ فظننتها هي الأخرى ترى أو تشم مارأيت وشممت، وكانت تحدث نفسها بصوت مسموع، وتشعل سيجارة بعد أن تطفئ أخرى، وقالت أنا امرأة وحيدة، القطران يغطي سماء طنجة وأرضها ويغطي هذا البحر وهذه الشوارع والدروب، ياويلي! هذا زمن القطران. كيف نحيا في زمن الحرب وأنا وحيدة، لارجل ولا أهل ولا أصحاب

وصاحبات؟ النساء اللواتي ألتقي معهن في الاجتماعات النسائية وفي المقهى كلهن ثرثارات، يتحدثن في السياسة والتاريخ والأدب وهن لم يقرأن كتابا واحدا في حياتهن، متعالمات يتظاهرن بامتلاك الحقيقة والحكمة في كل شيء وأنا لم أتنازل عن رأيي القديم : قضايا المرأة هي جزء من النسيج المجتمعي، ولا معنى لأن تخوض المرأة حروبا مع الرجل وهو نفسه لم يتحرر من عقد السلطة والأب والمرأة والمجتمع. الأنشطة القطاعية على الرغم من أهميتها لاينبغي أن تعزلنا عن التفكير في الكل المجتمعي أو أن تنتهي إلى اصطناع الحدود بين المواقف والأفكار. عوانس أو فاشلات في الحب وفي مؤسسات الزواج، وهذا ليس عيبا، يقلن هذا اختيار ويكذبن على أنفسهن بعد أن اكتسبن شخصيات رجالية رغم العطور وتسريحات الشعر والاحتماء أحيانا بحجاب ليس كالحجاب. والحرب لايردن أن يخضن في النظر إليها وتحليل آفاقها وممكناتها انسياقا مع ثرثرات متعالمة ومزايدات في الكلام.

ظلت ساميا تتحدث مع نفسها وكأنها تقدم بعض الاعترافات، وتمنيت أن أرى الصاحب في تلك اللحظة وهو يدخل الدار متأخرا كعادته أو مقدما لموعد رجوعه فقد غاب عني الزمان والمكان ولكنه لم يأت، وبقيت ساميا في بحران كلامها مع النفس، وأنا أنظر إلى الشاشة وأتصورها أمام كاميرات لا مرئية أو أنها أمام آلة تسجل مذكراتها التي لم تكتبها وعرفت أن شيئا من كل ذلك لم يحدث فهذا الجهاز خارق غريب يدهش بكل شيء، كأنه جهاز مسحور، أتت به مقبولة وقالت أرادت أن نرى كل شيء وأن ترانا نفعل ونرى كل شيء، وظننتها تمزح، ولكن هاهي ساميا الآن

تلتفت نحوي وزبيبتها التي على ذقنها تبدو أكثر نفورا وتقول لي هل تسمعني؟ هل أنت تراني الآن؟ أنا أيضا أراك على شاشة التلفزيون الذي أشارت إليه، وقالت لي أي قطران كهذا قطران؟ قطران وأي قطران. وابتسمت فبدت زبيبتها السوداء وهي تنفر متدلية على جانب ذقنها الأيسر، وامتصت الدخان من السيجارة ونفخت في الهواء حتى تضببت الرؤية وظهرت ساميا من خلف السحابة وهي تحرك شعرها وقالت زواج القطران هذا، الصاحب نسي رجولته ولم يتأنث بعد. رجل لايضحك ولا يغازل ولا يبتسم، لايثرثر كباقي الناس، ولا يسافر ولا يقرأ من الجرائد إلا عناوينها مدعيا أنه يعرف ما تحت ذلك العنوان وأن كل الخطابات صارت مبتذلة وماعاد شيء يبعث على الإغراء، حتى الأخبار السرية التي تفضحها بعض الحروب السياسية يدعي أنها لن تغير شيئا ولا حاجة به إلى أن يعرف أحسن. وها قد صرت جردا في هذا الدار. أنا امرأة وأحتاج إلى الحب ولكني لا أستطيع أن أبتذل جسدي مع رجال لايعتبرون المرأة سوى قنص أو فريسة، وإلى متى؟ أحيانا أبحث في عيني رجل عما كنت قد رأيته في عيني الصاحب قبل أعوام خلت ولا أجد، وأقول لنفسي ولم لايكون البدء من لحظة الجسد ومعها وبعدها يمكن أن تتولد اللحظات الإنسانية التي أبحث عنها، ولو كان الأمر مجرد اشتهاء لحظة لوجدت في ترهات طنجة حضورا لجسدي الضائع بين الوظيفة والسوق والطرقات وهذا الفراش الأعزل. أنا أحيا في جزيرة الذات المعزولة، وإذا كان الصاحب قد نسي جسده أما كان عليه أن يتذكر أن لي جسدا؟ الغربان تنعق وراء بعضها. تشظيات

مجتمعنا وحيرتنا وترددنا في الحماس لشيء لا تمنع كلها من أن نسند بعضنا في هذه اللحظات التي هي استمرار لإمكانات سقوط محتمل طالما ظللنا نعصم أنفسنا منه بسلاح الإرادة ومحاولة معرفة وقع الخطى على طريق غير الطريق، أعرف أنك تراني الآن وتتورط في أسئلة أخرى بالرغم من أنك مريض وغارق في وحشة عالم أوهامك ورؤاك، وها قد فسد هواء المدن. سمعتك تقولها، ربما هذا القطران هو الذي أفسد كل شيء، مالك تنظر إلي هكذا؟ صاحبك لم يعد بعد، وحالما سيعود لن يخبرني بالمكان الذي كان فيه، ولن يمنحني مناسبة الكلام لكي أجد في هذه الوحشة مع من أتبادل الحديث حول أوضاع الحرب. أصبحنا لا نتكلم إلا قليلا، يقول إنني أتصيد كل كلمة منه للهجوم عليه وتسفيه أفكاره وأنني عدوانية وهوجاء وأتكلم أكثر مما أسمع، وحالما أسمع شيئا يستفزني أبدأ في الرمي بالحجارة، وأحول الحديث إلى حرب، إلى تنغيص فوق هذا التنغيص، أعرف، كم من مرة قال هذا بحضورك وأنت لاتحب أن تتدخل بيننا، محاولا إمساك الحديث من آخر طرف أو مغيرا مجراه، وليكن، هل أصبحنا أعداء؟ أهي الحرب فوق هذه الحرب؟ إلى متى؟ هل سيتغير الناس ويتغير صاحبك وتتغير هذه الخرائط؟ الغيم الذي رأيته في سماء مدمدمة لم يأت بمطر، وهو غيم جاء إلى عيوننا بالكآبة وكفى. وتنحنحت وسعلت وأشعلت سيجارة، ونظرت إلي حتى التقت نظراتنا وقالت لي لم أسألك عما قال الأطباء، أما تزال تنتظر؟ لا تخف. قلت لك كل العلل تداوى، وكفاك أنك لم تدخن طوال هذه الأيام، غدا سأزورك. حاول أن تقرأ وأن تنام، ومن سوء حظك أنك انحشرت

في هذه الغرفة مع الشعباوي، كنت أشاهد كل شيء في التلفزيون. حاول أن تنام.

وغابت الصورة تماما وحينما عادت رأيت قطرات القطران التي ظلت تسيح على الأرض والمظاهرات المؤيدة للشعب العراقي والشهب تقذف بعضها والأبراج والسحرة ووجوه سياسيين معروفين وتفاحات تنشطر إلى أشطار وشموع ومقاه وعراكات بالأيدي وأمواج تندفع نحو الرمل وقبرات ومقبرات وآبار نفط ونساء حوامل ودبابات تجتاح ورمل وقطران ذائب فعدت أشم رائحة القطران وأطفأت التلفزيون حتى تتوقف الرائحة وبقيت أنتظر مجيء إحدى الممرضتين وأنا أخمن هل ستأتي العبوس أم الأخرى البشوش.

نهض الشعباوي من نومه وأخذ يناديني :

ـ آخاي. آالشريف.

ولما سمعته ظننت أنه يريد أن أنادي الممرضة بالضغط على الجرس، فلربما أحس بشيء أو أنه يريد مني أن ألحظ قطرات السيروم إن كانت تسري مسراها ولكنه قال لي :

ـ آخاي. اشعل هذاك التلفزيون.

وحاولت أن أثنيه عن رغبته منبها إلى أثر السهر على صحته ولكنه قال :

ـ هذه هي ساعة الشخضة فجميع الأوطيلات، فاين مامشت. آشعله. آخاي.

وحالما أشعلت التلفزيون بدت الصورة مشوشة فقال :

ـ أيما. على زهر.

وبعد حين من ذلك التشوش ظهرت القصبة، والساحة التي يوجد بها المتحف ومرقصو الثعابين يقبعون بجوار السور العتيق وقد حبسوا ثعابينهم في صناديق خشبية كبيرة. لم يظهر أي سائح في المكان، البحر هنا قمة القارة. البحران يلتقيان على المدى تظهر سفن آيبة وأخرى ذاهبة. الأدراج تهبط عليها بعض الخطى هنا قمة القارة. متثاقلة من غير أن يظهر أصحابها. أبواب المنازل مطلية بالأخضر والأغراس تطفح على النوافذ. حرفيون وبازارات صغيرة والرزق على الله. الأدراج شبه خالية إلا من بعض الخطى المتباعدة والوحشة تملأ المكان وأغنية لعبد الصادق شقارة تفد من إحدى النوافذ ولكنها تزيد المكان وحشة وإحساسا بالفراغ. وتعود الصورة لتظهر قمة القارة والبحرين اللذين يلتقيان ويظهر وجه الفقيه العالم سيدي عبدالله كنون مستندا بإحدى يديه إلى حائط المطل وعيناه أسياتان فيهما كدر وهو يرتدي جلبابه المعروف بالقب ذي القرنين. واختلط علي بمجرد رؤيته إن كان قد توفي إلى رحمة الله أم أنه مايزال صابرا وشاهدا ولم أدر أهي لقطة قديمة أم أنها ترجع إلى هذا الوقت بالذات. وقلت لابأس، رؤيته تبث في النفس اليقين والثبات والخير والمحبة، لكن شيئا كان قد أخره في هذا الوقوف وهو يطل على البحر، حتى ومسكنه غير بعيد، فقد تغيرت نظرته وزال عن عينيه الكدر وبدا في نظرته صفاء ومضاء وهما تشعان بومض في الخاطر.

قال لي الشعباوي :

ـ آيما ماعندي زهر.

قلت له :

ـ اسكت وشف بعينك.

قال :

ـ الشخضة بادية.

قلت :

ـ ها مقبولة تتشوفك.

ـ ياك غير الأوطيل. ماقلت والوا.

ـ اسكت.

ـ خصني نشوف.

ـ ها أنت تتشوف.

ـ خصني نشوف الشخضة.

ـ اسكت دابا تشوف.

ـ هذا سيدي عبدالله كنون.

ـ مسكين. ماله واقف عالبحر؟

ـ قلت لك آالشعباوي خض فراسك.

ـ شف آخاي. راه التلفزيون ديالي، وخصني نشوف فيه اللي بغيت.

ـ أيوا خصك قناة تلفزيونية خاصة بك.

ـ وعلاش لا؟ راها القناة ديال مقبولة.

وبعد كل ذلك الوقوف المطل على البحر تحركت خطى الفقيه وهبط تلك الأدراج وئيدا وطرق باب الدار بالمطرقة ثلاث طرقات بدرجة معلومة هي التي تدل عليه على مايبدو، وكانت المطرقة على شكل يد مضمومة الأصابع، ولكن أصابعه بدت نيرة طيعة الحركة، فبها يخط علمه الشريف وفتاويه ومقالاته في العلم

والثقافة والأدب، وبسبابتها يتشهد للواحد القهار الذي لاقهار سواه، وانفتح الباب من غير أن يظهر من فتحه ومر الفقيه بالسطوان وصعد الأدراج إلى غرفته فظهر المكتب المرصع بالعاج ورفوف الكتب التي تغطي الجدران ولكن الفقيه كان متعجلا فاستوى على الكرسي ورفع كم جلبابه وأخذ القلم وبدأ يخط خطوطا على القرطاس لم تظهر في الصورة. وكأني بالفقيه العالم يفتي فتواه في تحريم الاستعانة بالأجنبي على مقاتلة المسلم، وكأنه وهو راعش أطراف الأصابع يفسد ودا ويقطع حبل سرة بين الإخوة وبين الأعداء، أو يعيد للدم مجراه، قلت ربما، فقد اختلج جفنا الفقيه وبدا تقرحهما وارتعشت أصابعه فما دهاه في الوقت العصي لأن يكون مقرح الجبين وهو المحفوظ برعاية من الله؟ وقلت أكان الله قد أخذه بين يديه أم أنه يعيش هذه المحن، بترسانات الحرب على العراق كلها، ولذلك يفتي فتواه؟ وأحسست بنضوب الماء في حلقي وباختناق في الحنجرة فما علمت هل خرج من مكتبه أم سجد للصلاة أم راح يقرأ الأوراد ويتهجد أم أنه يستظهر النصوص في ذاكرته ويستعيدها منها ولكنه ماعاد يظهر أمامي على الشاشة وأنا أشعر بذلك الجفاف في حلقي الذي تشوك وبذلك الاختناق.

وعاد الشعباوي يقول لي:

- فين؟ فين الشخضة؟

فقلت له:

- أنا أختنق.

وقال

ـ هذا المكان خانق. ولو رأيت معي الشخضة لما اختنقت.

قلت له :

ـ اضغط على الزر. أريد شربة ماء.

وقال لي :

ـ اشربها من التلفزيون. هاهو الماء أمامك.

ورأيت ماء لا ككل الماء، ماء يغرق كل هذا العالم وهو يترقرق ويتموج وينهار من شلالات عالية فقلت :

ـ أنا أموت.

وقال لي :

ـ الماء سيحييك. خصك شي عايلة، ليدخل الماء في الماء، وتحيا آالملعوق.

ومددت يدي لأضغط على الزر ولكن المذيع ظهر على شاشة التلفزيون وهو يعبر عن مخاوف أمريكا من إيجاد حل عربي لأزمة الخليج يسلب زمام المبادرة من يدها ويحول بينها وبين تنفيذ مخططاتها ضد العراق وبعض البلدان العربية. كان هذا المذيع الذي عودنا على ابتسامته في كل أخبار الفواجع مترددا في هذه اللحظة بين الفجيعة والإنشاء وقد برزت صلعته التي لم ينجح التمشيط في إخفائها ومابقي له من شعر ملمع بالبر ينتين مرسل إلى وراء أو أمام وهو يتحدث عن إعداد مستشفيات بريطانيا لاستقبال الجرحى الذين ربما يكونون مصابين بأسلحة كيماوية، وأن واشنطن تفرض ضغوطا كبيرة على الرياض وباريس لمنع تبلور أي حل وسط في أزمة الخليج. وبدا باسما سعيدا كأنه هو يفرض تلك الضغوط لا مجرد مذيع للأخبار، ولمعت شعيراته المسدلة إلى الوراء أكثر من

غيرها بالرغم من أن وجهه كان براقا وشفتاه ريانتان بدهن أو صبغ أما أنا فكانت شفتاي تذهبان نحو أسفل اللسان لامتصاص مايمكن من ريق، وحين تحدث عن الخطوة التي أنجزتها السعودية والعراق معا، بعد جهود ديبلوماسية، لم يبتسم، وتعكرت نظراته واختصر الموضوع إلى أن الأيام القادمة يمكن أن تسفر عن كثير من المفاجآت.

وقال لي الشعباوي :

ـ الأخبار؟ قل لهم أريد أخبار البنات.

قلت له :

ـ أي بنات؟

قال :

ـ البنات. بناتي. في أوطيل سولازير.

ـ مالهم؟

ـ يمكن ماكاينة شخضة مع هاد الحرب.

ـ آالشعباوي أنت حمار.

ـ أنا حمار. والله حتى نضربك. أنا نتضرب بالكوتشيا والله حتى يجي وزير الداخلية يخرجك من هنا، ويعطيك عام داالحبس.

ـ أنامريض.

ـ والله حتى يديك للفوريان. ماشفتيش المرسديس الحمرا؟ أنت حمار! حمار وتتقول للشعباوي حمار.

ـ إيوا صافي.

ـ صافي لليماك. انعس. غطي راسك وانعس.

وظهرت مقبولة وقالت له :

ـ شف. شف آ الشعباوي. خليك فالتيقار مع العايل، راه زين، وأنت حمار. رانا نجي ونوريك آ الشعباوي. إيوا انعس. غطي راسك وانعس.

فغطى وجهه بطاقيته وبدا متناوما وهو يقول لنفسه :

ـ صافي. أنا حمار. العايل زين، وأنا الحمار. صافي.

غناء ورقص. فيض من كلمات يتدفق. مناغاة. ضحكات مخمورة. هديل حمام أو يمام. طقطقة على سرير ينوء بالثقل. سعال. ماء يشرشر من البزبوز. شعاع حارق يخترق العين. نوار ذابل مرمي على أرض إسفلتية قط يلحس لسانه على حد السكين. كلب منتعظ. أوراق يانصيب. عراة يرقصون. أبراج غير عالية. تنين برؤوسه الراعشة يستشعر الضحية. ساميا. الصاحب. مقهى الحافة. حانة الجرح في الحائط ربيع الأغاني وأغاني الربيع. وشم ووهم. شظايا زجاج وحكايات لم تكتمل وقبل مختلسة في الظلام. ورد يتفصد منه الدم. أدولفو يكشف عن زنده الموشوم ويغازل برتقالة. المرأة الزرقاء. بواخر تمخر العباب. أسراب طيور الخطيف السراب طيور أبابيل. جهات طنجة السفلى والعالية. زحام. غزالات. أوراش وأصوات احتكاك الحديد بالحديد. زغاريد ومناحات. وهج أياد معفرة بالتراب. نساء مغضنات الوجوه. أسلاك متشابكة. عقد حبال. نار ودخان مطر. لافتات وكتابة على الجدران. صور ملوك ورؤساء عرب وأجانب. فئران الصحراء. شجرة أعياد الميلاد. ديك تشيني. خالد بن سلطان. لالة رحمة. شارع الحرية. حانات الشاطئ. شيء كامرأة ولكنه

رجل. ضحكات. أقاويل. جرائد معروضة على الأرصفة. لحى طواق بيضاء على الرؤوس. زوايا وأذكار وأوراد. تحايا المجهولين. أشجار نخيل تهزها الريح. رأسي يصاب بالدوار وحلقي ناشف وحنجرتي تختنق وكأنما تشتعل فيها النار وحينما أشرب الماء كأني أشرب ماء النار. نقيق ضفادع تخوض بسيقانها في بركة ماء آسن. شقوق غائرة على سطح الأرض. أشياء غامضة مبعثرة في أماكن مجهولة. دموع صبيان. كلاب تنبح. صدر عار حركات طائشة في الفراغ. أمي تقلي السمك في المقلاة وهي جالسة على حافة قبرها. لالة رحمة تشتري لساميا فستانا وقارورة عطر. رعب في العيون. دجاجات ذبيحة تضرب بأجنحتها على الأرض ودماؤها الأخيرة تسيل في الأعناق. آيات بينات ترسل من جهاز كاسيت مبثوث على قارعة الطريق. رجال صلع يعبرون أودية ومهاو. أشقار. مالابطا. القنصليات. عيون تختلس النظر. ماء ودمع. أول شعاع شمسي. أوراق تخشخش. قطران ذائب يسيح على الأرض. صديقات ساميا في مقهى باريس. خوذات عسكرية. نجوم متهاوية. أذان في الصوامع. شخير العالم. بيت الموتى. صبيب سطر أسود. أجنحة مهيضة. ماء ينبجس من عيون الصخر. أنا مختنق وحنجرتي تأكلها النار وأنفاسي تكاد تتوقف.

ليل نهار؟

توابع أو زوابع؟

المشهد الذي غيبته الستارة وطواه الظلام هو مشهد الجمال. كانت كما شاهدتها في هذا الصباح تبرك خلف تل صغير يحاذي البحر. لم يظهر في البداية سوى ثلاثة أو أربعة، ثم جاءت الجمال

الأخرى وأخذ بعضها يحني أعناقه للأرض وبعضها يرفع الأعناق للسماء، و لم أعرف أكانت من بينها نوق لجهلي بمن تكون له حدبة أو حدبتان أهو الجمل أم الناقة، ولما سألت الشعباوي هل الناقة لها حدبتان أم الجمل أخذ يضحك وقال لي، انظر إلى ذلك الشيء وتعرف، انظر إلى الضرع، هل تستحيي حتى من النظر إلى الحيوان؟ لك صاحبة؟ متزوج؟ مطلق؟ مالك؟ الرجل راجل آخاي، وإذا مات فينا ذلك الشيء فلا تقل الكلية ماتت، قل القلب توقف والسلام. وتلك التي تأتي لتزورك؟ مليحة، حلوة بحال السكر. تتخدم بزاف؟ عليها أحداق عينيها زورق. ماجبت لك لابنان ولا تفاح. جابت غير الهدرة والسلام. ماعندها فلوس؟ قلبها مخلوع عليك. قالت لك آش قال الطبيب واش عند الطبيب مايقول؟ أنا ماخصني كلاوي. عايش والسلام. شف آخاي، واشكون هذاك خانا اللي بايت لبراح تتحلم به؟ الناس تيحلموا بالنسا وأنت تتحلم بالرجال؟ بايت تتشكر فيه وتعظم تقول هو مول البلاد أو شي رجل من رجال الله. رجال الله كلهم تقاضوا، مع الخمر، والحشيش، والنسوان فكل قنت فين رجال الله غدي يديروا راسهم، ومع من غدي يتكلموا؟ إيوا غير سر وكان، ناقة ولا جمل ابحال ابحال. إيلا طاحت له وركب عليها راه جمل، وايلا ابقا واقف قدامها راه ناقة ابحالوا ابحالها. اضحك آخاي. غدي نخرجوا من هنا وندي معايا خاي يشوف، تضرب شي كيسان معتبرين، بلحاق بلانكير، بلاكازيطات، بلا هدرة على الحرب. أيما، مالكم؟ شف الشخخضة وعنق وبوس، نعطيك الغرامة باش تغرم علي وعليك. ليلة أحسن من عام. عام أحسن من هاد

العمر كله. راك تسمع شي كلام تيقتل بالضحك. تبقى تتضحك حتى يسكت لك القلب. وهذيك الغزالة، لالة ساميا، سمعتك تتقول لها ساميا، شفتها فشي موضع، فين الله أعلم. لا حاشا. يمكن شفتها فلالة شافية راكبة فشي طاكسي من الطاكسيات ديالي. يمكن شفتها معك فهاد التلفزيون، ولكن قبل، شفتها فلالة شافية، أنا عارف طنجة من الطرف حتى للطرف، غير هذاك الفقيه خفي علي. قلت لي اشنوا اسمه؟ الله يفكرنا فالشهادة. ايواو هاهو جمل، وهاهي ناقة، وأنت مالك؟ مسكين ساطت لك الريح فالقفة. مريض؟ ماعندك والو. شف أنا مسكين. يمكن مابقاشي. مابقالي مانشوف.

أخذ الشعباوي يشهق بالبكاء وأدار وجهه عني نحو الجانب الآخر وبعد حين عاد يدير وجهه ليراني وقال لي كنت تتحدث عن الجمال، آه، تلك التي هناك، قدامك تراها من النافذة. كنت أراها. أنسيت أنك أخذت سريري عندما أخذوني إلي غرفة الإنعاش ولما عادوا بي وضعوني هنا على هذا السرير؟ في الصباح سألت الممرضة عن ثمن المتر وأخذت تدير وجهها المكرمش ككرموسة ماهي خضرا ماهي يابسة. ربما أشتري بقعة هناك، ليس لي، ولكن لواحد صاحبي وعزيز علي. طلبت منها أن تسأل عن أصحاب الملك وعن ثمن المتر ولو اشتريت أعطيها الحلاوة. كم يعطونها في الشهر؟ الحلاوة التي يمكن أن أعطيها هي أجرة الشهر أو أكثر. شي إنسان طيب وغزال بحال وجهك، هو فالرباط وأنا خصني يشري له شي بقعة هنا، يمكن يصيف فيها بعدما تتبنى مع أولاده. هو ما يجيشي، عنده الشغل بزاف، ولكن أولاده يجيوا

بحال هو بحال أولاده، يلاقلت لك اسمه تعرفه، راه معروف ولكن بلاش. مازال هذاك التلفزيون مخرشش؟ إيوا ها احنا تنقرقبوا الناب. اسمع آخاي. خصك تحضر شي شخضة معايا. أنت طنجاوي؟ منين؟ خصني شي دار أخرى فالجبل الكبير. شي فيلا معتبرة، نديرها غير للشخضة كل ليلة، وعمر مقبولة ما تدخلها ولاتعرفها فين جات تخدم معايا؟ نصاوب لك بيرمي كونفيانس ونعطيك شي طاكسي؟ بنادم قاري مزيان. شف الحمار ابحالي. ها لافلوس ولكن هاد الشي اديال الأوراق ما عارف فيه والو.

في أول يوم جئت فيه إلى هنا كنت أظن أنني سوف أبقى ليوم أو يومين من أجل الكشوف والتحليلات ثم ربما يحددون لي علاجا أتناوله وأنا في مكاني، بين الناس، قريبا من الصاحب، ولكن ها أنا أتساكن مع الشعباوي وكأننا سجينان في زنزانة واحدة، ولقد أصبح بثرثراته يمنعني من أن أقرأ الكتب التي حملتها معي أو أعود إلى تصفح الجرائد وتأمل التقارير التي حملتها إلي ساميا. الحروب المدمرة هي دائما هكذا، مباغتة تستعصي في آنيتها عن كل تحليل أو توقع، تستنهض الإحساس والذاكرة وتضع الملح في العيون وفوق الجراح. ثم هاهو الشعباوي، يموت ولايموت، وحتى وإن مات فإن من أمثاله الملايين. كيف تتغير هذه الخرائط ياساميا والنخب غارقة في أوهامها وصراعاتها. ثم دعيني الآن أسألك عن الصاحب، هل طوته هذه الأيام القاسية كما كانت تطويه أيام أخرى مضت بقسوتها التي ما تركت في الذاكرة سوى ندوب وآثار؟ كم أنت قاسية على نفسك وعليه ياساميا. هل

القسوة على الذات هي كل ما تبقى لنا؟ يقول إنه يحن إليك ويقترب فلا يجد غير الجفاء، ولا امرأة في حياته سواك. تعدينه بغد له وعده بغد هو الآخر، حتى يبس في عروقه الدم ونسي أن له جسدا كما يقول وكما قلت، وبعد كل هذا تقولين إن وحدتك قاتلة وأن رغاب جسدك تقبلها الوحشة والعزلة. هل تريدين منه أن يصبح روميو وأنت جولييت؟ هل سمعته وهو يقول أنا ظهراني ولاأحب أن ألوث جسدي ببقايا جيف تشبه ما تبقى من نساء؟ هو أيضا وحيد تقتله العزلة، ولو أصغيت إليه لوجدت قلبه عامرا بالغناء والضحك والثرثرات وحب الحياة. أما عاد في العالم شيء سوى هذاالخراب وهذه الحروب؟ وأنا كالصاحب ياساميا، حظي سيءمع نفسي ومع الناس، وأنا مثلك لاتضحك لي امرأ ة أو تضغط على يدي عند السلام وهي تنيم عينيها إلا وأجدها تريد أن تهرب إلي من رجل آخر، وكأني سلة مهملات أو مزبلة لبقايا نساء. كيف أضمهن لحطام حطمه غيري وما بإمكاني أن أجبر خاطري فكيف أجبر خواطر نساء يرغبن في الإفضاء بمحنهن اليومية مع الرجال؟ الواحدة تبدأ من زوجها ونهاره وليله معها أو مع غيرها ومع الخدامة أو منظفة أدراج العمارة وتنتهي إلى رجال آخرين، شريك في تجارة، عجوز أخذها معه إلى حج بيت الله الحرام، ابن عم أو خال كان هو الزوج المشتهى، عابر سبيل... وتسألينني أين ألتقي مع كل هؤلاء النساء؟ أقول يلتقين بي في أماكن عزلتي مع الذات، ويفتعلن لحظة قرب أو بعد، يضفين الطهرانية على أجسادهن ومن نكات صغيرة سرعان ما يتم تداركها أو التراجع عنها أعرف أنهن لسن طهرانيات. كلام.

وثرثرات تجترحها محبة العصمة ولكن لأحد معصوم .والمهم أننا لم نمتلك بعد جرأة الحديث عن تجارب المعيش بعقلانية وأن نواجه نصفنا الآخر بالحقيقة لابنصف الحقيقة، ولذلك تحضر المواربة ومعها الحياة السرية والقلق اليومي، والازدواج، وتناقضات الفعل مع الممارسة، ويتوزع الجسد بين ليله ونهاره وتتسع مساحات الغربة والفراغ، ربما، ولانغدو سوى حطام أو بقايا أو ثقوب ذاكرة موزعة على محطات للنسيان، ولربما تجمعنا الألفة أو العادة أو بعض المصالح الصغيرة في لحظات تهدد بالصمت الدائم أو بانفجارات عدوانية وشتائم تجرح الذات. ولاأحد منا يستطيع أن يعجن الآخر ليسوي منه الطبع والمزاج واللغة التي يريد، فكيف بكرامة مزعومة لاتنتظر سوى أن يجرحها أحد، حتى وإن كان التجريح هو الاختلاف في الرأي أو النظر إلى الشيء ذاته من زواياه الأخرى الممكنة أو كلمة يمكن أن يكون لها هذا المعنى أو ذاك ؟ أليس هذا متعبا وباعثا على اليأس؟ وكيف يضحك المرء يضحك المرء من قلبه ويسمح لحكايات طفولته أن ترد على لسانه ويتجرأ على القول وهو مرصود وموعود بالوعيد؟ كيف نتحرر من عقد الخوف من السلطة ونحن لم نتحرر بعد من عقد الخوف من المرأة؟ كيف لا نحيا مرتين، مرة في هذا الظاهر الاجتماعي ومرة في خلايانا وأوهامنا وخياناتنا السرية لذواتنا. وأنا لا أتحامل عليك يا ساميا، ولكني الصاحب، وصاحب الصاحب، وكما كنت تستأنفين مكانك، في اعترافات حميمة ظننتها لي وحدي، وظننت أن ما يظهر في التلفزيون لا يشاهده أحد سوانا، فها قد طاوعتني الجرأة على أن اعترف، لأن جرأتي تحسب أنها هذيان ليلي مكلوم

لرجل مريض يوجد في مصحة، يهدد الشعباوي بأن ينهض من منامه ليبدأ حديثا آخر يستبد ولا يسمح بالقراءة أو التأ مل أو الاستسلام للنوم واستقبال الكوابيس.

أنت مضنية ياساميا، معذبة لنفسك وللصاحب وصاحب الصاحب. أنا صاحب الصاحب، وأنت بيننا شعاع أمل مضيء يريد أن يتحول في كل لحظة إلى برق خلب أو إلى ترشيد في متاهات تعرفين أننا نخاف الذهاب فيها ونستحب ذلك الذهاب. وطوبى للأغبياء في زمن الحرب والحسرة والقلق والانتظارات. طوبى للشعباوي وبناته اللواتي لم يلدهن من صلبه، ولمقبولة والغزواني واسطانطو ولكل هؤلاء، والعالم لا ينهار ولكن خرائطنا لا تتغير حيث نريد لها أن تتغير ربما سيموت الشعباوي وتبقى مقبولة، وربما سأموت ويبقى الصاحب مصاحبا للرغبة التي تهيج حماها في العروق ها هي الريح، رياح الشرقي تفد على طنجة كعهدها، وهاأنت يا ساميا، وأنا، الصاحب، وصاحب الصاحب، نبحث عن ملاذ في حلم أو وهم أو كابوس، وإذا كنت لا ترينني الآن على شاشة التلفزيون، كما لا أراك، فها هو الشعباوي ينهض ويسند جسده بكوعه المتكئ إلى الفراش، وينحني باحثا عن طنجرة الدجاج، فلا يجدها ويقول لي:

ـ آويلي، فين الدجاج؟

ولم أرد عليه فقال:

ـ جاءت مقبولة وما جابتوش؟

واستند إلى الوسادة وقال:

ـ والكوميسير ما جاش؟

وقال لي رجل مريض ما ياكلش، ما يشوفش، حتى الكوميسير قالت غدي يجي وماجاش، اشني هاد الشي؟ الكلوة اللي غدي يزرعوا لي ما زال ما جاتش، اشكون يخلص علي الفلوس يلاما جاء حد؟ آخاي. آصاحبي. اشعل هذاك التلفزيون نشوف أولاد الحرام آش تيعملوا في من عمايل. رانا ولد السوق، تنضرب بالكوتشيا، وقلت له اهدأ ونم الآن فقال لي والله وما تشعل هذاك التلفزيون حتى نشرك لك وجهك بالكوتشيا، آالزبل، آالخانز، آولد السوق، ما قالتشي بشحال المتر فهذيك الأرض، وشكون أماليها، خانزة، كلبة، بنت السوق، صافي أنا غدي نضرب. ها هي الكوتشيا بين صبعاني صافي، زد قرب آالزبل، وضغطت على الجرس، وبعد حين جاءت الممرضة العبوس.

لم يمر يوم في هذه المصحة كهذا، فقد علا الهرج والمرج وكف الأطباء والممرضون عن القيام بواجبهم لبعض الوقت ثم قرروا أن يعلنوا الإضراب بالشارات الصفراء وأن يستمروا في مزاولة عملهم. وكتبوا مذكرة خارجية رفعوها إلى نقابة الأطباء وأخرى داخلية نشروا نسخا منها بينهم وعلقوها عند المدخل، ولما جاء أحد الممرضين إلى الغرفة ولم يجد الشعباوي في سريره قال لي رجل مخفخف في عقله وأشار إلى سريره الفارغ وقال لي كل شيء عن الإضراب والصندوق الذي يمتلئ كل يوم بالملايين ومداخيل الأطباء والممرضين والموظفين القليلة، وأن برقيات قد رفعت إلى الدوائر العليا، وقال لي نحن نخوض حربا مع الإدارة، فسألته عن الحرب وقال هي حرب الكبار، أما نحن الصغار فحربنا مع الخبز ومع هذا القطران الذي نشربه كل يوم، ثم ابتسم وقال لي هل

لديك مائة درهم تقرضني إياها إلى الغد، ولما لم أرد راح يفتش تحت وسادة الشعباوي، وظهر عليه أنه لم يجد شيئا فقال لي رجل عنده الفلوس ولكنه حمار، ولا يحب أن يقول له أحد حمار. وبعد خروج ذلك الممرض لم أعرف أ أنا أطير أم أسير، أم أنني أركب حصان طروادة أو أدخل بيت الموتى ولا أخرج منه في هذه المرة. واختنقت أنفاسي واحترقت حنجرتي من جديد، وتباطأت دقات قلبي واختلجت، وحالما عاد إلي شيء من تنفسي لا أدري أصرت تنينا أو حصانا نافرا أو غابة كثيفة الأشجار أو وهما أو سرابا أو ذكرى من الذكريات، واختلط علي الزمان والمكان وجاءتني الجهات كلها وهي تجتمع في طنجة أخرى تلك التي لم أرها بعد والتي لم تريها يا ساميا ولاالصاحب رآها. تلك طنجة التي في الأزل. وتغير الطقس وتملكني الابتهاج والمرح لولا أن تنغص خاطري فجأة وأنا أستعيد دسائس من يحيطون بي فقلت لاحرب إلا الحرب مع الذات ومع من يحيطون بها قبل أن نحارب الأعداء. ورأيتني لا أشهر سيفا ولا أركب حصانا ولا أخرج إلى القبائل ولا أرى غير ما رأيت، ولما أعلنت الحرب تلك وجدت ذراعي تنزف دما وها هي يا ساميا، ما تزال تنزف، وها أوراقك أمسكها وهي ملطخة بذلك الدم، أقرأها ولا شيء سوى الدم.

ولتكف عني هذه الأوراق قبل أن أكف عنها. حلقي ناشف والنار في حنجرتي وقلبي يضطرب. تقولين اشرب الماء وها أنا أشرب قطرانا من هذه القارورة.

سأموت ولا أحد يأتي. لو ذهب كل الذين أتوا لاسترحت ربما في هدأة وكللتني النجوم واستحممت في البحر أو أكلت

الطيور من رأسي أو لبعثرني الريح على كل تلك الجهات التي هي جهات طنجة التي اجتمعت، أو جاءت إلي أمي بطاجين الغرنك بالبصل والزبيب مشحرا وقالت لي كل، كل قبل أن تموت من الجوع يا وليدي، أو لأعطتني الدنيا بشارة بهذه الحرب وصار لنا ذلك الزعيم الرمزي الذي تحدثت عنه ساميا وساعتها يقول كل عن نفسه ما يريد من غير أن يحاكمه أحد أو يتربص الناس به السوء. أسترق هذا الكلام من حنجرتي الضائعة ومن بلواتي وشكواي، وليكن.



زيتونات السي المختار

أشجار ماتت أوراقها وأسقطتها الريح ولم تبق منها إلا الغصون اليابسة، وأنا أسير على أرض متربة كأني أسير نحو المغارات أو باتجاه مهوى من المهاوي. ولم يكن يسير ورائي أو أمامي، ولم أكن أبحث عنه أو يبحث عني، فقد كان كل واحد منا يتوزع في هذه الأرض المحروقة التي صار هواؤها خانقا وترابها الأ حمر يعفر أقدامنا الحافية. وجدته جالسا تحت إحدى تلك الأشجار، في كف يده اليسرى ست أو سبع زيتونات سوداء يأخذ منها ويأكل ويرمي بالعظام على الأرض. وحينما اقتربت منه سمعته يقول لنفسه غدا تكبر أشجار زيتون من هذه العظام، فما عاد ثمة من ظل تحت هذه الأشجار.

ولعلي كنت أحلم، فجدي السي المختار اليزناسني مات منذ سنوات، وهاهو الآن يجلس أمامي تحت شجرة ويأ كل الزيتون. كان مشهورا في طنجة بجلبابه الصوفي الذي يرتديه على اللحم، وصندله الجلدي في قدميه وعصاه في يده ورأسه ولحيته حليقتان أبدا. وكان أطفال الأ حياء يناوشونه فكان لايلتفت نحوهم ويقول لعل الله مني غضبان، الأطفال كالملائكة وإذا لم يعجبهم أحد فلا شك أن الله لايحبه، ربما لأنني أدخن الكيف وأستمع إلى الراديو أ و ربما لأن الشيطان يزورني في المنام وهو على شكل امرأة، الله أعلم، وأنا لا علامة لي لقيام الساعة فعلمها عند الله ولكن بعض الزيتونات السوداء وخبز الشعير يكفيان لسد الرمق والماء في سبيلا لم ينقطع والحمد الله. وكانوا مرة يقولون لأمي أبوك بوهالي ومرة يقولون لها شريف مجذوب من أهل الخير

والبركة، ومرة أخرى يقولون لها رأيناه يركب حمارا أو رأيناه يأكل من خرائه أو سمعنا الناس يقولون طار السي المختار بغير جناحين وحط في أعلى مكان في رياض الإنجليز وعاد يطير فوق ضريح سيدي بوعراقية ثم اختفى ولم يظهر له أثر وربما ذهب يطير فوق البحر إلى بلاد النصارى، وكانت أمي تنكس نظراتها إلى الأرض وأنا أتطلع إلى الحزن في عينيها وتقول لاحول ولاقوة إلا بالله. شريف مخلخل، وقولوا، وخليوهم يقولوا اللي حبوا.
وها أنا حالم أويقظان أقترب من مكان جلوسه تحت تلك الشجرة وحالما رآني قال لي :

- آش أخبارك آابني. فوكاش غدي نوصلوا؟

قلت له :

- لاين آجدي؟

فقال :

- وما عرفت لاين، ولكن واش ما غدي نوصلوش؟

وجلست بجواره فألقمني زيتونة من كف يده وقال لي :

- مالك؟ مريض؟

ولم أرد فقال :

- كلنا مرضى في هذا الزمان . كلها ومرضه.

- أنت مريض آجدي؟

مريض بالعشق آبني، بحب الله. شوف واش نوصل ولامانوصلش.

- لاين آجدي؟

- للقطبانية. حبيت نولي قطب رباني.

وقال لي شف هذا العالم شحال هو صغير، نور الخالق راه يغطيه بالليل والنهار، ونار هذاك النور يمكن تحرقه فرمشة عين، وأنا لاأعرف ما يعرف، ولو اقتربت منه أكثر لعرفت ما عرفني به من منطق الطير وما تقوله الريح وهي تسبح للواحد القهار وما في الأرحام وما تخفيه الصدور، نار أو نور ياولدي؟ حريق أم بريق؟ مبتدأ أم خبر؟ علو أم انخفاض؟ لاتسألني عن شيء حتى يتبدى لي وحين يتبدى أقول أو لا أقول. أنت مريض وأنا مريض والله هو القوي العليم. وقال لي لاطير فوق الشجر، ولاذا الجناح يطير في سماء، ولاحوت يسبح في الماء، ولانجوم ولانفس تدري مرتضاها ومبتغاها ولاتدري بأي حق تموت إلا بقوة السميع العليم. وأنظر إلى هذا الماء كيف يدخل في الماء وألق عليه نظرة وعلي نظرة وعد إلى المصحة فأنا أعلم أنك مريض ولك سرير تنام عليه قرب هذا الماء وبقربي وبقرب الرحمان العليم. عد ياولدي، فحراس المصحة أشداء أقوياء ولربما يظنون بخروجك هذا كل الظنون، فلا أنت في مرض ولا أنت في يد المخزن، ودعني أطير أو أسير أو أسبح تحت ماء هذا الماء، ولكل ما أراد الله له، وما طنجة إلا ما أراد لها الله، وأنت صغير ياابني وأنا أحس عرقك بارد والرجفة في أطرافك، فإن قدر لك الله أن تموت أمامي فسأحفر قبرك هنا تحت هذه الشجرة وأغسلك وأكفنك من ثوبي وأتشهد أقول جنازة رجل وأصلي عليك صلاة الجنازة ثم أدفنك في قبرك وأسقيه من ماء البئر ثم أطير أو أسير، ولكن الله يمد في عمرك حتى تعود إلى سريرك في المصحة، فاخلع عني فأنا في مقام غير المقام.

ولاأدري أكان جدي هو من قال لي هذا الكلام أم أني أنا من

كان يقوله بلسانه فلم أعرف أأنا حالم أم يقظان، في سرير المصحة أم ذلك الزمن الغابر، في المغارات أم في طنجة العالية، في المتاهات أم في المرايا، وظل عرقي البارد يتصبب على جبيني وعنقي وظهري وأنا أسير نحو وراء وأمام وما كان مني إلا أن أذعنت للعودة إلى السرير وحالما وجدت نفسي في السرير رأيتني أرتدي خرقة جدي الصوفية وبدت لي الكواكب والنجوم والأغراس والصيف في الشتاء، والشتاء في الصيف والدموع والأقاويل والطيور البيضاء والمحلقة في سماء زرقاء وصبارة واحدة هي التي ظهرت وهي تزهر.

ودعوني أقول إن استطعت أن أقول، فقد اشتعلت النار في حنجرتي وتيبس الماء في الحلق واشتد اضطراب القلب، وها يد توضع على صدري، خافقة كجناح أو مهمهمة كريح، يد رأيت في الظلام أنها مبلطة بالحناء من غير تزويق عرفت أنها يد رجل، وشممت رائحة الحناء فعادت إلي أنفاسي ثم شممت من تلك اليد رائحة الكيف وتنفست منها هواء البراري وأزهار أشجار الزيتون ورأيت سبابتها تسبح للواحد القهار أو كأنها تتشهد لكي تذكرني بالشهادة، وامتدت تلك اليد فقطرت ماء في حلقي ولما ابتلعت تلك القطرات وضعت زيتونة سوداء في فمي فعلمت أنها هي يد جدي السي المختار، فتحسستها وكانت خافقة كجناح أو مهمهمة كريح، مرت على جبيني وصدري وسمعت صوته يقول لي : ـ آابني . قم وياالله .

لم أره وأنا في ظلام الغرفة والشعباوي نائم والتلفزيون مطفأ فقلت له :

ـ لاين آجدي؟

فقال :

ـ قم ياالله، نشوفوا واش غدي نوصلوا.

ـ لاين؟

ـ ياك كنت فالحبس، قالوا كنت مع الماركسيين. ياك مسلم. قم يا الله ها الخرقة. الله يبرئك من كل الأمراض.

ـ ولكن فاينك آجدي؟

ـ أنا حداك. قريب. قم جا الوقت. يمكن غدي نوصل

ـ وأنا آجدي.

ـ يمكن توصل معايا. السيارة حمرا ديال الشعباوي ما غديش توصل. الحرام مايوصلش.

ـ آشمن سيارة حمرا؟

ـ دابا تشوف وتعرف. ولكن يا الله معايا.

وقطرت اليد قطرة ماء في حلقي وخفقت كأنهاجناح على جسدي وانبعث في الظلام ضوء صغير ورأيت نسرا أو عقابا يحلق في سماء ودلفينا يندفع في ماء ورأيت وجه جدي السي المختار مهللا وضاء بابتسام وكانت يده خضراء أو صفراء أو وردية أو هي كل أيادي هذا العالم البيضاء، فقد تعبت وها يد تمتد لي بالمحبة والشفاء فهل أقوم وأذهب؟ وقلت له أين أنت فقال لي أنا في الجبل، وسألته أين سنذهب فأجاب إلى رحمة الله الواسعة، ثمة جبال وأشجار وبرار، وماء وزيتون وسماء سوف تظللنا بالرحمة، قم وعليك أن تمر على الصاحب في البيت لتأخذه معك إلى أن يتسلم مني الخرقة، هي خرقة واحدة، لك وله، وقل له ما عاد له من أوان لأن يحتار، هو الذي لم يحتر قبل أن يدخل السجن

وحتى بعد أن خرج منه، أنا أحب الطهرانية ياولدي، في طهارة الجسد نلتقي ياولدي، أما النفس فلها أدرانها، والله بدوائها عليم، قم ياالله، الخرقة في المكان المعلوم، ذاك الذي وجدتني فيه، وعرفته وحدك، من غير مرشد ولا دليل، فأنا لاأخبر أحدا بمكاني، قم ياالله، فأنا قريب الوصول.

وظننت أنني أشاهد كل هذه الأشياء على شاشة التلفزيون ولكني حالما نظرت إليه كان مطفأ فصدرت عني صرخة وناديت :

ـ آجدي. فينك؟

وسمعت صوته يقول لي :

ـ أنا قريب. ياالله. قم.

لكن نقطة الضوء التي كانت قد ظهرت الظلام أخذت تتضاءل حتى عم الغرفة ظلام كما كان وظننتني حالما أو متوهما فلم أعرف كيف دخلت حكاية السجن في حكاية الخرقة الصوفية، وكيف دخلت أوراق الحرب التي أعدت ساميا تقاريرها إلى انتظارات هذه الغرفة المصحة، وكيف تعرفت على الشعباوي ومقبولة في هذا المكان، هذا التلفزيون الذي فرحت بأن يأتي إلي بالأخبار، فإذا هو عين رائية ومرئية على الغرفة وطنجة، وكل هذا العالم. ظننت أنني أحلم أو أتوهم كل هذا وأنا في حديقة الأرواح، واستبدت بي الشكوى والبلوى فلم أجد أحدا يسمع، وما عاد يأخذني الانتظار إلا نحو الانتظار، وكعادتي السابقة فلقد أردت أن أراود النوم بأحلام يقظة تذهب بي نحو أحراج الضوء والمراعي والمهابط البحرية التي تظهر فيها أسماك سارحة وسط حدائق الماء والاخضرار، ولكن ارتخاء الجفن لم يطاوعني،

وتوترت أعصابي، فصرخت :

آجدي. فينك؟

ولم يرد، ولم يتمايل الشعباوي في فراشه، فتسللت من الفراش على رؤوس أصابعي وأشعلت التلفزيون محاذرا، ألا يكون صوته عاليا، فرأيت الصاحب يأخذ ورقة ويخط عليها بخطه المغربي البديع :

غار حراء

ويأتي بها إلى باب الشقة ويثبتها باللصق ويعود إلى ما توهمته غارا وسميته أو مغارة من تلك المغارات التي لم يسمها.

يجلس على نفس الطاولة التي يستعملها مكتبا ومائدة للطعام وهو سارح في عوالم لاأستطيع أن أتكهن بأبعادها ومهاويها وتخومها. وتغيب عيناك أيها الصاحب مع ذلك الاصفرار البادي على الوجه وشعر الوجه المشوك وانحناءة الرأس. هل قررت أن تعتزل أو تعتصم؟ تنساني هنا حبيسا في هذه الغرفة وتحبس نفسك في غرفتك لنغدو حبيسين كل منا في بلواه وشكواه. وماذا بعد؟ كم سيطول هذا الوضع لتتغير خرائط الغرف والمدن وتنزاح كل هذه الكوابيس؟ لو كنت أعرف لقلت لك، الأطباء لايعرفون والشعباوي لايعرف وحتى دهاقنة هذا العالم لايعرفون فكيف أعرف؟ حتى عمي المختار، لايعرف هل سنصل ومتى إلى أين. وها أنت رهين محبسك وأنا رهين هذا المحبس، تنظر إلى فراغك وأنظر إلى فراغي ولن يطول هذا الانتظار.

أمطار من حجارة. أبواب تصطفق. مدينة كل أبوابها للريح والغبار. زعانف حيتان تتحرك. أضواء تخلب العين. فراشات من

حديد صدئ ووطاويط وأبهاء قصور فارغة وأظلاف ماعز وآبار نفط تشتعل فيها النيران. سحائب غادية في سماء بعيدة. وبر وأشواك. كأس تسقط من حافة المطبخ وتتهشم. مرايا تتقابل وتنظر إلى ذواتنا بعيون المرايا. مراحيض يكثر عليها الدخول والخروج. مقابر. نحل ونمل. كتب تخفق أوراقها. ذبائح. على مزارات. شعاع بدر. سردين يباع على النواصي. شارع النخيل. مقبرة القطط. شارع الحرية. دقات قلب. شظايا ومرايا غمز ولمز. تين شوكي. أصداء مظاهرات وافدة من بعيد. صمت رهيب. حانات تغلق أبوابها. سطر مكسور وسيف مفلول ووجه مذعور ونساء راقصات على شظايا ذلك الزجاج. ورد وبخور. سلاميات أصابع. التماع أسماك في القيعان وهي تمرق. دعاء للخالق الواحد القهار. أطلنتيد. يوتوبيا. خرق صوفية. تمزق وصرخات مدوية. صباحات للخمول والكسل واستلذاذ غفو حال. رياح هذا العالم.

وقال لي الشعباوي :

ـ آشني هاد خربيقو زربيقو؟ واقلب الموجة.

وقلت له :

ـ خصنا البارابول؟

ـ ماله؟ نجيبوه.

ـ واش احناسكنين هنا؟

ـ واشكون اللي عرف؟ رهم تيتسناو الكلوة ديالي تجي. واللي عنده باش يشري الكلوة ما يجبش اللهنا البارابول؟

ـ ويجيب حتى أوطيل الموحدين اللهنا.

ـ يجيبوا.

وأخذ يضحك وظهر باب شقة الصاحب وساميا تخرج المفاتيح من حقيبة يدها وترى اللافتة، تقول : غار حراء! هاد الشي جديد. وتنزع اللافتة وتفتح الباب بالمفتاح وتدخل وعيناها زائغتان تبحث عن مكانه وحالما تقف عند رأسه متنمرة لاتختلج جفناه ولاينظر إليها فلا تتقابل العين مع العين، وتظل واقفة تنظر إليه وهو يحس بنظراتها ولايتحرك تقول له :

ـ هل تشبه هذا الجحر بغار حراء؟

ولايرد.

ـ تشبه نفسك بالرسول أو بصاحبه الذي كان معه في الغار؟

ـ ...   ...

مضحكات مبكيات.

ـ ...   .

ـ أنت خفاش ليلي تخاف من ضوء الحقيقة.

وقال لها :

ـ قد أكون. دعيني ياساميا الآن.

ـ أنت وهم رجل.

ـ ساميا قلت لك دعيني الآن.

ـ ستقول إنك تنهار. ومتى كنت لاتنهار؟

وراحت إلى المطبخ ووضعت علب البلاستيك التي كانت في يدها ووضعت الورقة التي كتب عليها الصاحب : غار حراء. ووقفت ذاهلة ثم نزعت حذائها من قدميها وعادت إلى وقوفها الذاهل. قال لي الشعباوي :

ـ آويلي تيتخاصموا. يسوطها. ها الحزام ديال الجلد فنصي، لا، راه فالسروال، نعطيه الحزام من السروال يسوطها به.

وسكت لحظة وقال :

ـ هذاك خاك؟ سبحان الله بحالك، تقول أنت.

وظلت ساميا واقفة في شرودها وكأنها صارت من حجر. وتهاوت دمعتان على خديها لم تكفكفهما وعادت إلى الغرفة فسحبت كرسيا وجلست إلى جوار الصاحب وأخذت تنظر إليه وهو لايراها ينظر إلى فراغه، فطوقت عنقه بذراعيها وقالت له :

حبيبي مالك؟

ولم يرد. وقالت :

ـ ما الذي يضنيك، أنا أم طنجة أم هذه الحرب؟

وظل غائبا بنظراته لايرد فقالت له :

ـ إذا كنت أنا أضنيك إلى هذا الحد، سأعيد الورقة إلى الباب وأذهب للعيش مع لالة رحمة. البارحة زارتني وأنت غائب عن الدار وقدمت لي غلافا قالت به مائتي ألف درهم، وورقة قالت هي الوصية لي بما تملك.

ـ ... ...

ـ رددت لها الغلاف وأصرت على أن أحتفظ برسم الوصية.

ـ ... ...

حبيبي أريد أن أبقى معك، رغم...

وانتابتها نوبة بكاء حارق فوضعت رأسها بين كفيها وقالت :

ـ أعرف أن لامكان للنساء في غار حراء. المرأة نجاسة كأنها لاقلب لها ولاضمير، يطردها الرجل متى شاء هل أذهب؟ وما رمش جفن للصاحب ولازاغ له نظر، فقد غدا قلبا من حجر أو جسدا من فراغ وقالت :

ـ هل أذهب؟

ـ . . . .

حبيبي قل. اشتمني لترتاح. أعد إلي كل الشتائم التي جرحتك بها. اضربني إذا كان ذلك سيريحك.

ـ . . .   . . .

ـ أخشى أن يصيبك شيء وتتركني أعيش عذابي وعذابك.

ـ . . .   . . .

ـ حبيبي لاتوجعني بالصمت. قل.

ـ . . .   . . .

ـ وقال لي الشعباوي :

ـ يضربها يلا كان رجل. يديرها فالقفز يعطيها الزوان نهار إيه ونهار لا. يديرها فقفز بوحمارة ويطوفها فالدروبا والناس تيبزقو عليها.

وقلت له :

ـ وأنت آ الشعباوي، درت ها الشي لمقبولة؟

قال :

ـ مقبولة عندها الهزة. راها عارفاني. امرات صاحبك قملة فيها غير العض.

قلت له :

ـ أسكت آ الحمار. آ الوسخ آ الخنز.

فحاول أن ينهض وصرخ وقال آي، آيما الكلاوي، نضرب هاد الكلب، غدي يجي وزير الداخلية يخرجه من هنا ويديه يتعلق من رجليه ويجلسوه على القراعي أو يقلعوا ليماه الظفار. لكن

الصاحب حضن ساميا وأراح رأسه على كتفها وظل الشعباوي يشتم ويتوعد وأنا أحاول ألا أسمعه فقالت ساميا للصاحب :

ـ تعال نخرج .

فقال لها وهو غائب النظرات :

ـ أنت امرأتي وعيناي .

وقالت :

ـ حبيبي هل تعدني بأن تنسى؟ لن أشتمك بعد اليوم .

ورف جفناه وابتسم وقالت له :

ـ نتغذى في مطعم ونذهب لزيارة الصاحب .

وأشار برأسه موافقا . وقال الشعباوي :

ـ إذا جاءت تلك القملة إلى هنا سأسوطها بحزام سروالي .

وظهر الصاحب وساميا في مطعم روميو يأكلان الخس والبصل والريمونانتشا والصاحب يحتسي من كأس خمرته والنادل يضع الحساء السمكي وصحنا من اللينكواضو أمام ساميا وصحنا من الكالامار أمام الصاحب وساميا تقول له :

ـ هل آخذ الغلاف من لالة رحمة ونذهب للعيش في مكان آخر؟

والصاحب لا يأكل وينظر نظره للفراغ .

ـ طنجة تضنيني وتضنيك . ربما إذا غيرنا المكان سنتغير .

ـ ...   ...

ـ وإن كان على الصاحب فحالما يشفى ويخرج من المصحة نأخذه معنا ، ولامانع عندي في أن يعيش معنا فهو أخ لك ولي .

ـ ...   ...

ـ ونسيت أن أقول لك . البارحة حلمت بك تسير في أرض محروقة ، رمالها من نار ورأسك حليق وطير جارح يأكل من رأسك .

- ...   ...

حبيبي مالك؟ كل.

- ...   .

ومد الشعباوي يده إلى جوار الفراش يبحث عن طنجرة الدجاج فلم يجد وقال آه بنت الحرام، الكلبة الخانزة، إياها أن تكون قد ذبحت الديك بوبنارة وأكلته وحدها!انظر. سامحني هل صدقت أن وزير الداخلية يمكن أن يأتي إلى هنا؟ حتى ذلك الكوميسير لم يأت. الشعباوي يمزح والسلام. انظر هاهي في السوق الداخل عندها فالصاك الدفيز. أولاد السوق عينيهم زايغين عليها. شف. نصها تيهز وهي ماشية. ورأيت الصاحب وساميا يعودان إلى الشقة. وساميا تدخل وتخرج وفي يدها الورقة واللصق وتثبتها على الباب، وظهر لي خط الصاحب المغربي البديع : غار حراء

تم أقفلت ساميا الباب من الداخل وبقي الباب مغلقا أمامي وأمام الشعباوي الذي كان يبحصص في التلفزيون. ،ها هي الخيل لاتجمح على جدار. انظر أيها الصاحب إلى طين هذه الديناصورات كيف تشقق وكيف أن الأغراس لايمكنها أن تطفح في حفرة الموقد. الأشياء والحوادث المستعادة لايمكن أن تستعاد إلا على صورة أخرى كأنها شبح عابر في ليلة ماطرة ما عدا الجروح التي تبقى لها ندوب وآثار، وأنا الآن لست في مرحلة استواء حتى أتوسم من نفسي النظر إلى الحقائق أو استكشاف الوقائع والتحولات، لاأحب البرهنة على شيء، لأن ما يمكن البرهنة به على الشيء يبرهن به على نقيضه. العقل الكشاف يحتاج إلى

صحوة والطريق يحتاج إلى رفيق وأمواج هذه البحار كلها يمكن أن تحمل مركبا تائها لملاح نشوان. السقيا والمطر. الريح · العواصف والتوابع والزوابع. الأبهاء الفارغة والدوام وهذا السقام في العروق والشرايين ونظر العين. وقل لساميا أيها الصاحب إنني لاأحمل لها ضغينة وإن كنت لاأستطيع أن أنسى. قل لها ذاك جسدها وهو نفس جسدي وقد تواجدا في العزلة والفراغ والموت، وما آن لفرح أن يأتي، وما آن لطائر أن يحط في صباح باكر على شرفة بيتنا ليوشوش فتأتي أنثاه من ورائه وتوشوش له فيتناقران كما يكون النقار فأمسح عيني من غبش وتمسح ساميا عينها من ذلك الغبش وتأتي نحوي وآتي نحوها. لست جسدا من حجر ولاجسد ساميا من حجر ولكن ذلك الطائر الذي انتظرت أن يحط على شرفة بيتنا قد صادته بقع القطران التي ساحت على الإسفلت، فتشبثت مخالبه بالأرض واختنق وطارت أنثاه من ورائه باحثة عن مستقر لمخالبها على الأرض وكانت تحاذر أن تقع في ذلك الموقع الذي وقع فيه الطائر، وإن كانت قد فقدت المكان والجهة والعش والبيض والفراخ وقد دوختها رائحة القطران. ورائحة القطران أما كنت تشمها أيها الصاحب؟ الروائح المهيضة للأجنحة لايشمها إلا الأصحاب أيها الصاحب، ولربما يشمونها قبل أن تنتشر، ولقد سمعت ساميا في عزلة ذلك الفراش تنهض من منامها وتقول ما هذه الرائحة، هل أتيت بقارورة قطران لتمنع الحيات والثعابين من الاقتراب من الغرفة؟ هل نحن في صحراء؟ آه! رأيت القطران في التلفزيون وشممت منه رائحة القطران في هذه الغرفة وفي غرفة الصاحب وبين ثنايا ثيابي وإن كنت لاأشم روائح عرقك الحامض

وأنت لاتغتسل إلا مرتين أو ثلاثا في الأسبوع. كم قلت لك الغاز في الحمام لايكلف شيئا وحالما تستيقظ اغسل جسدك بالماء والصابون وستنتعش وتنتهي كوابيسك وحمى ليلك، ولكنك لاتغتسل وتتسلل من الفراش هاربا من رائحة عرقك الليلي ومن رائحة القطران؟ تقول ساميا هذا الكلام الذي لايسمعه منها أحد لأحد. وحالما أخرج إلى الشارع أبدأ نهاري بقهوة سوداء وببعض السجائر على الريق وأتصفح الجرائد ويأتي من الناس من يبدأون ثرثراتهم الصباحية مستعيدين أخبار البارحة والصور التي أظهرها التلفزيون نقلا عن السي. إن. إن ومتكهنين بنوايا صدام حسين وخباياه وقدراته القتالية ومدى تحمل الشعب العراقي لعشرات الآلاف من أطنان القنابل التي تسقط عليه، وهل هي حرب إعلامية تحطم المعنويات أم أن الحرب البرية بالفعل ستكون هي الحاسمة، وكل الممكنات تصير متداولة على الألسن والتعالم والاستباق إلى التحليلات والبراهين الفاسدة والأسى في العيون وقهوة القطران يرشفها كل الناس في صباح كهذا أو غيره من الصباحات، ولربما أنهض وأسير في اتجاه سور المعكازين لأتوقف قليلا وأستمع إلى حكايات السي عبد النبي وهو يخلط الكلام بالكلام ويدخل الكلام الأبيض في الكلام الأسود ويغشى عينيه كدر وهو جالس في كرسي الإعاقة ينظر إلى المدى والبحر والبواخر ولاينظر إلي ويقول لو عادت إلي قدماي لعدت إلى فندق الشجرة ولو عاد السياح إلى طنجة بعد هذه الحرب لأرشدتهم إلى رعب ليلها ونهارها وشعاراتها العميقة الصماء، ولحركت طواحين الحجارة التي اقتطعت من تلك المغارات، وهاك سيجارة محشوة، دخن

معي حتى ترى طنجتك الأولى التي كانت، أيام الإنجليز والفرنسيس والماريكان، ودعني أريك أين كان الماخور الذي لم يخرج منه أحد مريضا أبدا، وسأعرفك بالمستر هو فمان والمستر علي الذي كان المغربي الوحيد الذي يدعوه الأجانب المستر علي وآخذك إلى مسرح سرفانتيس لترى الأكابر من الضباط ورجال المخابرات أو أعود بك إلى حانة التفاحة الذهبية أو أسمعك ذلك الكلام الذي كنت أقوله للسياح عن طنجيس أو عن الطين الذي جاء، وأنا أتكلم بسبعة ألسن وعملت في شبابي ترجمانا لدى بعض القنصليات ولكنهم لم يعودوا يثقون بي بعد أن اختلست بعض الوثائق من هنا وهناك وقدمتها إلى هناك. ولاتظن بي الظنون، فما كنت جاسوسا، ولو كنت لما رأيتني أركن إلى فندق الشجرة، لكنت الآن في فراكفورت أو جنيف أو باريس أو حتى لتحولت إلى صاحب حانة أو بزار أو مطعم تقليدي، ولكن الموجود الله، هذه مدينة لهاسبعة أرواح، تقبض لها على روح وتظن أنك قد عرفتها فتقبض تلك الروح التي قبضت عليها على روحك لاتموت تماما ولكن لتلزم حدك في السوق الداخل أو في السوق البراني حتى لاتظل تعرف أأنت في طنجة المفقودة أم في طنجة المستعادة، وإذا كنت طنجاويا مثلي فلا تخف من تهاوي هذه النجمة، نجمة تسقط فوق رأسك أو كتفك ثم تراها ولاتجدها، تبحث عنها ولاتجدها، وتقول ربما أنا شيطان ترجمني هذه الكواكب، ولكنك أحمق، فتلك ليست نجوما أو كواكب وإنما هي أرواح موتى هذه المدينة تحاول أن تشق صدرك لتسكن قلوبها في قلبك وبرازخها تعيدها إليها بعد كل ذلك الزوغان

والتيهان، اسمع آالشريف، آخاي، لاتصدق كلام كل الذين يريدون أن يأكلوا الثوم بفمي، لست متسولا ولامأجورا للقياد ومقدم الحومة، عزي فراسي، وهاك هذه السيجارة وتكما واعرف آش تما، اردع مزيان وشف فالبحريقول لك آش من طريق فين غدي تمشي، ياك مسفار؟ الأمة كلها ضلت الطريق ورانا غير واحد من هاد الأمة فين غادي تمشي؟ طاحت الصمعة علقوا الحجامة، راك بعينك وشف آخاي عندك تقول، مالوا، ماكين والو، غير شف راسك.

وأترك السي عبد النبي على خير ولاأعرف أين أذهب أ إلى حانة النكرسكو أم إلى مغارة من مغارات الروح أم إلى جنون ساميا وربما أذهب إلى اللامكان أو إلى الأماكن التي تعرفها كما تعرفني أيها الصاحب، حيث أمارس عزلتي ونظري إلى مايسمونه فراغا وهو ليس كالفراغ، وحيث لاأكون مرصودا من قبل أحد، وسواء أفات الماضي أم بوادر شيء من التراضي حول طي الصفحة قد أخذت تلوح، فإن آثار التعذيب لايمكن أن تنسى حتى وإن أصبح جلادو الأمس يدعون أنهم ضحايا اليوم، ودعني أقول لك أيها الصاحب إن شهرزاد لم تكن تسكت عن الكلام المباح إلا لأنها كانت تخشى أن يؤدي إلى الكلام غير المباح. ثمة نوايا غير واضحة الآن لتحول هذه الخرائط، ولربما تتضح فيما بعد وأنا لامصلحة لي إلا في استقرار هذا الوطن وضمان الحرية للمواطنين، ولن أتكئ على ذلك الماضي السياسي البسيط، الذي أديت فيه ثمن الرأي، لكي أترشح لبلدية أو برلمان، ولن أدخل سلم الترقي في حزب من الأحزاب لكي أصل مع الحزب إلى السلطة إن وصلت إليها، كما أنني لن أختار المنفى وطلب اللجوء لكي أجعل من

ندوب جسدي عورة أكشفها للمنظمات الدولية أو أن أصبح مأجورا لدى إحدى الدول أحمل صفة معارض وأضع الورقة في يد تلك الدولة لتصبح حامية لضحايا الرأي والمنفيين والمضطهدين في بلدانهم، وأنا لست مع البوليزاريو في أطروحاته ولامع زعمائه الذين هم مجرد صنائع لحرب شقاق ونفاق بين الأخوة الأعداء فهل أمن المنطقة هو أمن استراتيجي أم هو أمن التوافق على قيم ومبادئ؟ ودعك أيها الصاحب من هذا أو ذاك، فأنا لست خارجا عن دولة الحق والقانون، ومع ذلك فقد لاحظ أبناء الحومة أن سيارة رمادية من نوع بوجو يسوقها رجل غليظ الوجه والقفا تمر كل يوم في الواحدة بعد الزوال وفي الثامنة ليلا على نفس الزنقة، آتية من الشارع المؤدي إليها، وغليظ الوجه يسوقها بتؤدة، ويتطلع إلى الشرفات، وبالضبط، إلى شقتي، يسير بنفس المهل، ولقد أخبرني أبناء الحومة بأنهم قد تشككوا أول الأمر في أنه يرصد امرأة ربما كانت ستلوح له من الشرفة بإشارة، واستبعدوا هذا الأمر ووصلوا إلى أن أحد المهربين ربما يقطن نفس العمارة، فتحروا في الأمر من خلال مراقبتهم للسكان ومن بعض الملاطفات مع السنيورة التي ظلت وفية لحراسة العمارة، وقالوا لي يا أستاذ أنت مراقب، ربما فلت من لسانك شيء أو أن السيدة ساميا من خلال نشاطاتها مع الجامعيات قد عكرت جوا من الأجواء وصار ذلك محسوبا على ماضيك، ولقد أخذنا صورة للسيارة ولوحتها التي تحمل الرقم وصورة للسائق الغليظ الوجه والقفا، أربعون يوما ولم يتغيب عن موعده في الزوال والمساء ليوم واحد، نحن لاشغل لنا سوى بيع الزريع والسويلطو وتتبع حركات الحومة بالليل والنهار،

ياأستاذ هذا الرجل هو الذي صدم سيارتك، ونحن نعرف أنها سيارة السيدة ساميا وأنت تسوقها لأنها تخاف من ازدحام الطرق، وتخشى أن تصدم كلبا ضالا عابرا للطريق فتشم السيارة رائحة الدم وتتعود عليه، ولربما تصدم في المرة القادمة عجوزا أو طفلا أو امرأة، نعرف، ولكن هو الذي كسر ضوء السيارة الخلفي، ولم نرد أن نقول لك، لأننا كنا نتحرى، عنك وعنه عن السيدة ساميا وعن كل سكان العمارة وعن رجال إدريس البصري، لأن هذا غير معقول، لايمكن أن يكون معقولا، سيارة بوجو رمادية تخرج من الشارع إلى الزنقة وتمر أمام العمارة كل يوم، في الزوال وفي المساء، منذ شهر وزيادة، غير معقول، والمهم يا أستاذ أن تعرف من هم الذين وراء ذلك الغليظ الوجه والقفا، لو كان لوحده لوضعنا له الزجاج والمسامير عند المنعطف وإذا نزل وقال بينتروا ضربناه، بالكوشية وعلمناه ألا يأتي إلى هنا، ولكن الله غالب، الرجل مدعوم، يمكن من وراه والله أعلم إما شي كوميسير أو شي خوانجي، راهم الخوانجية حاطين العين، واحنا عقنا بهم، احنا مسلمين، قالوا النفاق أو الحرام هذا شغل الله ما شي شغلهم، والنفاق ديالهم احنا عقنا به، واش غير دير اللحية والطاقية على راسك وقل مسلم؟ الإسلام آخاي راه، هنا، فالقلب، والقلب الله اللي عالم به، وكلهايدير شغله، وأنت يا أستاذ خصك تشوف شكون هاد ولد السوق، هاد بوحناك، داير بحال القحبة، اللي كل نهار جاي بلاشقا عليه، خاطي شغله، غير باش يدوز من هنا راه يمكن إما اخوانجي أو واحد من رجال البصري، وهما بحال ابحال. وتأكد لي أيها الصاحب، بعدما سمعته من أولاد الحومة،

أن طي الصفحة ما يزال في مرحلة النوايا، ولكن صدقني فأنا لم أرتعب، لأن ذلك الطريق كنت أسلكه كل يوم يوم ظللت أسلكه وأنا أمسح عيني من غبش وأتصفح الجرائد وأسمع تعليقات الناس عن الحرب وأذهب إلى مغارات الروح وجنون ساميا وأميل قليلا أو كثيرا مع شارع الحرية وشارع باستور وأستمع إلى حماقات السي عبد النبي وأدخل مغارة وأخرج من أخرى ولربما أصير أنا العين الرائية وأنا المرئي الذي تراه العين وأنا حجر أسن أعايش هذه القنافذ الملساء.

وهل جاء إلي كل هذا الكلام من الصاحب أم من التلفزيون أم من أولاد الحومة؟ متى كان الصاحب يفتح لي صدره بكل هذا الكلام، وهو التائه ومتى كانت القنافذ ملساء؟ إن أعادوني من هذه المصحة إلى طنجة فلن أعرفها ربما ولن أعرف الصاحب. ربما لن أعرف نفسي في طنجة أخرى يظهر فيها جدي السي المختار من جديد وهو يرغب في أن يلبسنا خرقة الصوفي، فماذا لو لبسها كل سكان طنجة وأكلنا من زيتوناته فهل كنا سوف نحيل المدينة إلى مطلق بعيد عن الصراعات والتصدعات؟ وعجيب أمرغار حراء الذي أراد الصاحب أن يسكنه مع الصاحب، عجيب أنا وعجيب أنت أيها الصاحب في هذا التردد والحيرة اللذين لايغيبان سوى تصدع الذات واتساع المدة بين الماضي والحاضر، كأنه شرخ كبير بين المبتغى وبين ما يحتمل أن يكون هو المنهى وطريق غير ما كان عليه الطريق. وهاك الخرقة أيها الصاحب فهل هي على قد جسدك وهل أنت مهيأ لأن ترتديها وهل تحمينا هذه الخرقة من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ والثراء ومنع الحريات؟ لاليس هذا وذاك،

لاهذه ولاتلك . لاخيار مع الخيار وبعده ولكن أينك ياعمي المختار وأين أولاد الحومة وأينك أيها الصاحب الآن. أنا ضجر ولعلي في بحران. حلقي ناشف والعرق البارد ينز من كل جسدي وعيناي معلقتان بالسقف، والشعباوي ينهض من نومه في اللحظة التي أشعلت فيها التلفزيون ويفرك عينيه ويستند إلى أحد كوعيه منهضا جسده على الفراش ورأينا ما رأيناه، وفي تلك الليلة لم أنم فقد استعدت كل حياتي بتفاصيلها وأنا أرى طفولتي والناس والأشياء بصفاء غريب، واختلط علي أأنا أرى كل ذلك من خلال ذاكرتي اليقظى أم من خلال شاشة التلفزيون.

في الصباح أخذت أستعيد ما رأيته إلى أن كل ذهني وارتخت مفاصلي، ولكن موعد الإفطار قد جاء، فنهض الشعباوي وأشعلت التلفزيون فظهرت السيارة الحمراء وهي تسير فهتف بي :

ـ شف هاهي، وصلت للبريش.

ـ ...   ...

ـ هاهي، وصلت لتهدارت وغدي تدوز أزايلا.

ـ ...   .

ـ الحمار تيضوبل، بالشوية باش توصل، شف أخاي شف.

ـ ...   .

ـ آاسطانطو مالك مقفقف؟ ما تتعرفش تسوك؟

والتفت نحوي وقال لي :

ـ طونوبير ديالي، شف اسطانطو هو التشوفير. إيوا الكوميسيرما جاش وأنا عرفت آش كاين.

ـ ...

ـ شف شف، دابا يو قفوه الدجادارمة. آ اسطانطو مالك؟

استنهض الشعباوي جسده واتكأ على مرفقه وهو يتطلع إلى الشاشة وفي تلك اللحظة دخلت الممرضتان العبوس والبشوش ومعهما رجل لايرتدي المريلة البيضاء فأطفأت العبوس جهاز التلفزيون واقتربت من الشعباوي تجس حرارته وجاءت البشوش تثبت عددا من النوابض حول صدري ومعصمي وركبتي وكانت تلك النوابض موصولة بأ سلاك تتصل بجهاز التخطيط الكهربائي وانحنت علي باسمة وقالت في أذني أين هي القوارير؟ أهي في مكانها؟ فوافقت بحركة من رأسي وذهب الرجل إلى المرحاض فأخرج القوارير وقالت لي البشوش يبدو أن الكالسيوم لايضيع مع البول ولكن علينا أن نزيد في أيام المراقبة وأشرت إلى صدري وحنجرتي فقالت لي في المساء ستهبط إلى السكانير وابتسمت وقالت لي لاتخف، جسدكِ رياضي ولون وجهك وعينيك فيه الدم، وأضاء وجهها بابتسام مشرق وهي تنحني علي لفك النوابض بعد أن خرج التخطيط في الجهاز وقالت العبوس للشعباوي إن فكرت في الضرب فهذا سوف يتكلف بك وأشارت إلى الرجل الواقف الذي كان قد أخرج القوارير إلى الخارج. وضحك الشعباوي وقال لها وهو يدس ورقة المائة درهم في يدها أريدك أنت أن تتكلفي بي في هذه الليلة فزاد عبوسها وهي تقطب ما بين حاجبيها ولما هموا بالخروج قال الشعباوي أشعلوا هذاك التلفزيون، كيف ما كان خليوه. آويلي فين وصل اسطانطو، راه غدي بالسخرة، ولما خرجوا قال لي :

ـ نض آ العايل، اشعله، مالك معكاز؟

وأشعلت التلفزيون فظهرت ذبابات نحاسية تطير وتطن وورود ملقاة على الإسفلت وقار يسيح وطيور حبيسة في أقفاص وقطيع ذاهب نحو المراعي وعين ينحبس منها الماء ونساء عاريات يولين أدبارهن لنا وقد انحنين وجبال جرداء واشتباكات ورجل يحاول أن يتكلم وقدرته على الكلام تتعطل ورمال صحراوية تذروها العواصف وركوع وسجود ومعابر ومقابر ومهماز تهمز به فرس جموح ووديان سحيقة وربيع وخريف و ضحكات وغسيل منشور على سطح منزل وقواقع بحرية ورماد وقار ثم ظهرت السيارة الحمراء وهي تتوقف في سوق أربعاء الغرب فهتف الشعباوي :

ـ هاهي.

ونزل اسطانطو وطلب من الجزار نصف كيلو من الكفتة وأخذه وسلمه للشواء وارتفع الدخان فقال الشعباوي :

ـ تاكل السم آولد الزفوت.

والتفت نحوي وقال لي :

ـ غدي يتعطل على الرجل اللي تيتسنى السخرة.

وظل اسطانطو واقفا مع الواقفين أمام المشواة ينظر إلى يدي الشواء وهما تقرصان الكفتة أقراصا وترميان بها على النار والدخان يرتفع، وقال للشواء :

ـ فين الكفتة ادیالي؟

ولم يرد عليه الشواء، فأمسك بذراعه وقال :

ـ قلت لك فين الكفتة اديالي من اديال الناس؟

وقال له الشواء :

ـ هاهي.

- عندي نص كيلو.
- هاهو.
وقال له الشعباوي :
- كلها وأنت ماشي فالطريق، الرباط مازالا بعيدة.
وقال له الشواء :
- هاك...
ومد له صحنا به أقراص الكفتة والخبز فجلس إلى طاولة وطلب براد شاي أوصى النادل بأن يكون مشحرا وزايد سكر وقال له الشعباوي :
- آولد الزفوت الرجل راه تيتسنى.
وأخذ اسطانطو يأكل ويرشف من كأس الشاي الذي بدا ساخنا فقال له الشعباوي :
- ياك؟ إيه؟ الكفتة مشوية فين لقيتها أنا هنا؟ حتى الدجاج ما جابتوش مقبولة. أنا غدي نموت بالجوع والفقايص وأنت مسافر ومساري وواكل؟ آولد الزفوت.
ولما أوشك اسطانطو على إنهاء الطعام توقف أمام المقهى طاكسي كبير ونزلت مقبولة وجلست إلى جوار اسطانطو على الطاولة، قالت له :
- حصلتك.
وقال الشعباوي :
- آويلي آمنين جات؟
وقالت مقبولة لاسطانطو :
- اطلب لي الكفتة مشوية.

وقال لها :

ـ آش اخباره؟

فقالت له :

ـ راه فالسبيطار. فواحد الكلينيكا تندفع عليه فيها كل نهار مصيبة اديال الفلوس. بلحاق اعلاين.

وقال لي الشعباوي :

ـ آويلي ، غدي نموت؟

وقالت مقبولة لاسطانطو وهي تغمز وتضحك :

ـ الكلاوي ميتين عنده، صافي. اعلاين.

وقال الشعباوي :

ـ آويلي قالت اعلاين؟ أنا والله مانموت.

ولم أرد عليه فقال :

ـ علاش ماشية معه للرباط؟ واش غدي تنعس معه فالأوطيل؟

وقال اسطانطو لمقبولة :

ـ أنا آاختي مقبولة نخدم معك كيف ما خدمت معه.

وأكلت مقبولة الكفتة المشوية وانطلقت السيارة حتى وصلت إلى علال التازي والشعباوي يهذي بكلام غامض ويشتم ثم يضحك ويحكي لنفسه بعض الحكايات عن نساء خائنات لأزواجهن وأنا أسمع ولاأسمع، والسيارة الحمراء تتجاوز وسرعتها فائقة، وفجأة يصرخ الشعباوي ويقول آويلي طونوبير غبرت، فين مشى ولد الزفوت؟ راه الكوفر عامر بالسخرة اديال الرجل والرجل راه فالرباط تيتسنى. وظهر مقهى باليما ورجل سمين الوجه أسمر على رأسه طاقية بيضاء يرتدي جلبابا أبيض، وأمامه على الطاولة

قهوة وقرعة أولماس صغيرة، فقال لي الشعباوي هاهو السيد، هذا غير مرسول باش يأخذ الأمانة، السيد مول الأمانة راه تيظهر فالخطب والتدشينات، وهو اللي أنا حبيت نشري له القطعة ديال الأرض فمالاباطا، وفين امشت المرسديس اديالي؟ حمرا. شف معايا ايلا ظهرت الطريق آخاي، وهذيك الخانزة فين غادية معه؟ ياكما لعبوا من وراظهري؟ آويلي مشيت. غدي يقتلوني بالغدايد. صافي؟ لادجاج فالطنجرة لافلوس ولاوالو.

شف آخاي يمكن يظهر الغزواني، راه ايدير عليهم الانقلاب ابحال اللي داروه علي ويطلق مقبولة ويزوجني مع العايلة هذيك الصغيرة اديالي، راه يزوجني أربعة ويخلي مقبولة تتموت بالغدايد، ولكن فين هو الغزواني؟ وظهر الرجل الأسمر البدين في مقهى باليما وهو ينقر بأنامله على الطاولة وينظر إلى الساعة التي في معصمه من حين لآخر، والمقهى مكتظ بالزبائن الذين يفتحون صفحات الجرائد فتختفي وجوههم من خلفها، والطيور توشوش والرجال المؤنقون يرشفون من فناجين القهوة ولم أدر أهو المساء وهل علي أن أهبط إلى السكانير لوحدي أم أن الممرضة سوف تأتي لترافقني وقلت هو المساء، وإلا فلماذا هذه العصافير تزقزق ولماذا لم يعد من شيء يظهر على شاشة التلفزيون بعدما تشوشت الصورة ولماذا ولماذا؟ ولماذا لم يأت الصاحب ولم تأت ساميا؟ وهي سيجارة واحدة وما يخشى علي من شيء، هي ميتة واحدة وحتى وإن كانت تحدث هذا التفرق كله فهي ميتة واحدة، وظهرت المدن وأسراب الحمام والأمواه والأعشاب الخضراء والسواقي والآبار ووجوه الفلاحين وظهر السمار في الغرف المجاورة

لايحبون الرقاد على جنب وبيت الموتى وعصف الريح والمتسولون والمؤذنون وضفادع تنق وعلامات قف ثم اختفى كل شيء وظهرت حروف على الشاشة تكتب : لماذا؟

نهار قائظ وقد سخنت الغرفة واشتدت فيها الحرارة. وظل الشعباوي طوال النهاريدير لي ظهره وهو يتمدد في فراشه ويتقلب من حين لآخر مستندا إلى كوعيه وتصدر عنه بعض الزفرات. مضى النهار كئيبا أثقلت علي دقائقه وثوانيه وأنا أسرح في أشياء كثيرة لم تكن بينها أي روابط فاسترجعت طنجة بكل أحيائها وشوارعها ورأيت الصاحب يقف في حانة بيلو مع بعض الواقفين ورأيت الفقيه سيدي عبد الله كنون يخط بعض تقاييده والبحر والأقراش ووجوه الغرباء وصبايا ترف شعورهن ومحطات بنزين والسوق البراني وأمي وهي تقدم كأس الشاي والسي عبد النبي والبشوش والعبوس وتحذيرات الأطباء والمحاذير كلها والمخدات والوسائد والبحار والقفار والآهات والأغاني والمباهج والمفاجآت والمنغصات والشوك والورد والجارات والجرات وأول سيجارة وآخر سيجارة والهوى والشباب والسلوى والبلوى وأناشيد الكشافة وباعة كاليبني وتجار العملة والموظفون الصغار والكبار وسيارة الشعباوي التي اختفت في الطريق ودودة القز وشظايا الزجاج وحطام الطائرات وفندق سولازير والبراري والشهد والنخل وبنو يهودا والنصارى والجبليات بقبعاتهن وطزازيرهن وحانة النكريسكو ومطعم روميو، وفيلا دوفرانس ورياض الإنجليز والهوام والدهماء والخطباء والشرفاء وشاطئ طنجة ومحطة القطار ولاأدري أكانت كل تلك الأشياء تظهر على شاشة التلفزيون أم أنها كانت تأتي إلى

خاطري من فراغ الغرفة وفراغ طنجة أو فراغ هذا الفراغ. تململ الشعباوي في الفراش وكان لايستقر على جنب وهو يهذي بكلام سمعته أو لم أسمعه، وقال لي :

ـ شف. هاهو فندق الشجرة.

ظهرت لي الجبليات واقفات عند الباب ونهار طنجاوي يبدأ وقال الشعباوي :

ـ حتى فندق الشجرة يظهر في التلفزيون؟

المصابيح ماتزال معلقة في أماكنها وهي تضيء رغم ضوء النهار. خشخشة أوراق جافة. أصوات غريبة تأتي من مكان قريب من الفندق. جرار صغيرة مليئة بالسمن والعسل. إبريق شاي يغلي على النار، سعال متقطع لرجل عجوز لايظهر وجهه في الصورة، وكل ما يظهر هو قدماه المتصلبتان وهما تحتكان ببعضهما السقوف العالية. مرابط للدواب. حمار يتبول، رجل يعبر الباحة ويقول صباح الخير بلهجة حاقدة ووجهه مكشر وصوت خشن يرد عليه الصباح لله، حمالات الأعشاب اليابسة يضعنها عن ظهورهن. أبواب مفتوحة وأخرى مغلقة. رجل يخرج من باب الغرفة وفي يده إبريق يصب منه الماء ويتمضمض ويستنشق ويمرر يده المبللة بالماء على ساعديه ووجهه ثم يمسح رأسه بيديه المبللتين وهو يتشهد. سمكات لامعة العيون. قوارير خمر فارغة. سلال قصب وسطول قصدير وبعض العلب البلاستيكية. سلال زيتون وخواب وأقراص الجبن فوق دومات خضراء وضحكات وحكايات وحمر تنهق وتتبول. جفون مسبلة. أكياس القمح وشراتيل البصل وحزمات الثوم. عنزات ضامرات الأثداء. بقول وفجل ونعناع

وأغصان ريحان. تضببت الصورة وتشوش الصوت وقال المذيع الذي نعرف صوته جيدا بشكل متقطع وغير واضح :

ـ طن بغد... صحر... السعو... الجيوسيا... عواصم العا... وفي هذه الآو...

ومددت يدي نحو الخريطة التي أتت بها ساميا بعد أن اقتطعتها من إحدى الجرائد واستنسختها مكبرة وفتحتها فوق السرير فرأيت المواقع التي تتجمع فيها الأسلحة وأنواع الجيوش. وتأفف الشعباوي وقال :

ـ سأكسر هذا التلفزيون. الحرب لاأحبها، وفندق الشجرة أعرفه. أريد أن أرى هل وصلت المرسديس الحمراء إلى باليما.

وبدا عليه التوتر وقال لي :

ـ أنت أصبحت تعرف كل شيء عن حياتي عن طريق هذه الشاشة. حتى سفر مقبولة مع اسطانطو إلى الرباط تعرفه. ولم أرد. فقال :

ـ ولكن لا. للبيوت أسرار. وأنا لاأعرف أي شيء عن حياتك. حتى اسمك لاأعرفه.

وظهر على الشاشة السي عبد النبي وهو يخرج من إحدى الغرف ملتصقا بالأرض ورجل يخرج كرسي الإعاقة ويلحقه به، يصعد السي عبد النبي الكرسي ويسوي طربوشه الأحمر على رأسه وهو يزيح من حوله كائنات لاتتراءى، ويخرج من فندق الشجرة، يظهر وهو يدفع كرسيه في شارع باسطور وبرفقته شبان طنجاويون يلثغون بإنجليزية مفككة ويشيرون بأيديهم ويفتحون أذرعهم بحركات عنيفة ويسيرون بسيره وهو يدفع العربة من عجلاتها.

وفجأة يظهر معهم السي عبد النبي يضاحكه ويشير إلى البعيد. هو. وجهه معروف على شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد. هل عرفوه؟ وكيف أتى إلى طنجة؟ هل ما أراه يحدث بالفعل أم أن ما تظهره هذه الشاشة هو خيالات وأوهام؟ وسمعت أحد الشبان يقول هذا أول سائح يأتي إلى طنجة بعد اندلاع الحرب. وقال جاءت به الحرب إلى طنجة، وأخذ يضحك ضحكة طنجاوية معروفة، وهو يسير ويبتسم ابتسامته التلفزيونية المعهودة.

وجهه أعجف، وعيناه صقريتان، وأخذت أتساءل عن عدم استقباله ومروره في موكب رسمي، وهل كان يمكن أن يمر موكبه آمنا في زمن الحرب هذا؟ هو هل واحد من أشباهه أم أنه هو نفسه؟ وهل يمكن أن يكون شباب طنجة مغفلين إلى هذا الحد فلم يعرفوه؟ والسي عبد النبي كيف لايعرفه؟

يظهر السي عبد النبي وهو في فندق الشجرة، يمسك بأرنب من أذنيه ويرفعه في الهواء. يتأرجح الأرنب ويتنطع، يقربه السي عبد النبي من عينيه فيتبادلان النظر ويهدأ الأرنب، يقول السي عبد النبي :

ـ فحل، الفحول عادة تصلح لعدة أشياء.

وقال الشعباوي ضاحكا :

ـ غدي تختنه؟

وقال السي عبد النبي كأنه يرد على كلام الشعباوي :

ـ ادخل سوق راسك.

ـ إيوا طيبه بالزبيب والبصل وأراه.

ـ بزاف عليك.

يذبح السي عبد النبي الأرنب ويسلخه من جلده ثم يلين الجلد في الماء الساخن ويملحه ويدعكه حتى يلين، ويقول للعايل الواقف أمامه خذ لحم الأرنب إلى غرفتي وخذ هذا الجلد إلى السطح حتى ييبس، يضيف بصوت مرتفع قل لهم جلد أرنب مسحور، إياهم أن يلمسوه، ويطل الجبلي من إحدى الغرف فيرى السي عبد النبي يغسل يديه من دم الذبح ويملأ الهواء في أحد شدقيه حتى يصبح كشدق الغياط ثم يفرغه من فتحة تضيق لها شفتاه ويحدث صوت ضراط يستدير نحوه السي عبد النبي وينظر إليه نظرة لوم على السخرية مما يقول.

وانتقل المشهد إلى شارع الحرية فظهر الغادون والرائحون والبازارات وما سحو الأحذية ومدخل فندق المنزه وظهر السي عبد النبي يدفع عربته صاعدا وراء جورج بوش والشبان الذين يرافقونه، وهم يحدثونه عن هذا المقعد الذي يدفع العربة من ورائهم، وهو يمتلك جلد أرنب مسحور، وجورج بوش يضحك، ويلوح بيديه، والسي عبد النبي يقول وهو يسير من خلفهم لن يعلمني أحد أين سأدفن نفسي، في طنجة مقبرة للقطط والكلاب وهنا مقابر لليهود والنصارى والمسلمين وقبري هو طنجة كلها. أنا المعلم أنا العارف بأسرار الذين اغتنوا بكذبة واحدة صغيرة وأصبحوا يلبسون الكاباردين ويجالسون الأكابر. سأبيعه جلد الأرنب وسيعود به وهو مقتنع بأنه مسحور. أحل الله البيع وحرم الربا. سائح وحيد في طنجة كلها وكم أقنعت السياح بأشياء لاتصدق، بعتهم خراء الجراء ودومات مفتولة وأخشابا من بيوت انهارت وكنت ألفق لكل شيء كذبته. وطنجة أخرتني إلى هذا المآل.

ويرتفع اللغط ويتضح أن مظاهرة يقودها شباب متحمسون لشعب العراق تقبل من السوق الداخل، ويظهر الشبان وهم يرددون :

لا إله إلا الله

جورج بوش عدو الله.

ويسأل جورج بوش عما يقولون فيترجم له مرافقوه ويضحك حتى تظهر أضراسه الكبيرة التي يبدو أنها قد رممت أكثر من مرة، ويتنحون جانبا فيعود الشبان للحديث عن جلد الأرنب المسحور، وهم يستديرون نحو الوراء باحثين بأعينهم عن السي عبد النبي الذي بدا عرقه يتصبب على جبينه وهو يلحق بهم.

ويظهر فندق رامبراند وجورج بوش يجالس الشباب في حالة الاستقبال والسي عبد النبي يرشف من كأس الويسكي المشعشعة بالثلج ويخرج جلد الأرنب المسحور من صندوق صغير مزركش على حواشيه أهداب من حرير ويطلب من جورح بوش أن يلمسه فيبدو عليه التردد، ويقول له أحد الشبان :

ـ لمسه يجلب الإحساس بالسعادة.

ويقول آخر :

ـ جسدك يطرد كل الغازات وأنت تلمسه.

ويقول الثالث :

ـ والأحلام الوردية. بعد أن تلمسه تحلم أحلاما وردية.

ويضحك جورج بوش ويقول له السي عبد النبي.

ـ كم تدفع؟

وفي تلك اللحظة تدخل المرأة الزرقاء ضاحكة وتقترب.

يتأهب موظفو الاستقبال والعمال ولاأحد يستطيع أن يقترب. يقول لها السي عبد النبي :

- مالقيتي فوقتاش اتجي غير دابا؟ كنت تتسناي شوية حتى نقبط الدولار.

وتزهو بجسدها النحيل وجلبابها الأزرق وتزداد اقترابا. يدفع السي عبد النبي عربته وينهض الشبان ليختفوا في الزوايا والمراحيض. وترخي شعرها على كتفيه بعد أن أحاطته بذراعيها، تبتسم له وتضحك ضحكها الأزرق وترفع جلبابها وتدخل ساقيه بين ساقيها. يسد أنفه وهو يحاول أن يفلت منها تنام فوقه وهي تضحك ضحكتها الزرقاء. تمديدها إلى الطاولة وتأخذ المشعلة وتشعل النار في أطراف جلبابها الأزرق تمتد النار وترتفع ألسنتها والمرأة الزرقاء من وسط ألسنة النار وظلت تجول في الردهات وزوايا الصالون وهي ترقص رقصة زرقاء.



تحت شمس وقمر

رميت وردتين وذرفت دمعتين وكفنت هذه الأوراق البيضاء في خرقة سوداء وحاولت أن أعود أدراجي وفجأة واجهتني المغارات تحاصرني أو تغريني.

دخلت المغارة الأولى فوجدت ضبعا يأكل سبعا والسبع كسلان لايقوى على رد شيء من نهشات الضبع ووقفت أنوي الخروج ولكن الباب صار أمامي بعد أن كان خلفي وأصبح علي أن أتجاوز الضبع ولكنه تبول وأراد أن يرش وجهي ببوله فعرفت أنه يطمع فيما بعد أن ينهش قلب السبع، فتبولت عليه أنا الآخر فاستكان واستنام وتخلى عن نهشه من السبع وأفسح لي فخرجت من ذلك الباب الذي كان ورائي وصار أمامي والضبع يتبعني وأنا أسير في أشقار وهو يتبعني والسيارات تتبعنا والراجلون يتبعوننا ورهط التابعين يكثر فألتفت ورائي وأجده ماضيا خلفي والناس يضحكون وكلاكسونات السيارات ترتفع وأنا أرغب في أن أهرب بجلدي والضبع يهرب بجلده ربما من ورائي والناس يهربون بجلدهم من ورائنا ربما حتى كل ساقاي فارتميت في ماء البحر وصرت دلفينا ثم طرت في السماء فصرت عقابا وكان الضبع يتبعني في الماء والسماء ولاأدري ماذا كان يصير.

دخلت المغارة الثانية فشممت رائحة ماء عتيق كأنه ماء الأرض الأول وسارت قدماي تخضان وسط ذلك الماء والماء يتقاطر فوق رأسي وينهمر على شعري ويغشي عيني عن النظر وإن لم يكن هناك مايمكن أن أراه سوى الماء. ومد الماء من فوق وتحت ورفعني

في اتجاه لاأعلمه فذهبت مع اندفاعه صاعدا كما أحسست من حركة الدفع وبلغت سطحا عاليا وسط الماء والظلام وبدوت لنفسي وكأني أشرف على ذلك الماء من أعالي الماء ومن ذلك العلو المائي سمعت أصوات طنجة بكل اللغات وسمعت الهمسات والهمهمات حتى حسبت أنها طنجة بشوارعها وأحيائها وأناسها تحيا معي في ذلك العلو الذي هو علو الماء وهو لايشرف على شيء سوى الماء، وأردت أن أخرج فما وجدتني إلا مدفوعا من خلف أو أمام ومن تحت أو فوق فبلغت باب المغارة وثيابي مبتلة بذلك الماء العتيق.

ومشيت زمنا تحت ضوء الشمس وأشعة القمر حتى وجدت باب المغارة الثالثة أمامي فدخلت بخطى وئيدة وتوقفت حيث تبدأ كثافة الظلام فسمعت ضحكات وأغان وشممت روائح أطعمة وخمور ورائحة الند والصندل وكان صوت يقول ليس هناك من يدل علينا هنا في هذا المكان. ولما اقتربت رأيت أولائك الذين نسميهم في طنجة طير آبقر بملابسهم البيضاء، ورؤوسهم المغطاة بالبياض ورأيت ما لايمكن أن أخبر به أحدا، فقد اقترب مني حارسهم وفي يده بندقية أوتوماتيكية واقتادني إلى محبس وجاء من استنطقوني سبعة أيام بلياليها وضربوني وأدخلوا الزجاجات المكسورة في مخرجي ثم رموني بباب المغارة وأنا لاأرى سوى الظلام تحت حر الشمس ولاأرى غير الدم في عيني.

دخلت المغارة الرابعة وكانت القاعات مضاءة والكاميرات مبثوثة في الزوايا وفي وسط القاعة الكبرى مائدة مستديرة للاجتماعات وقد كتبت أمام المقاعد أسماء الرؤساء والزعماء

والملوك والأمراء العرب وأسماء دولهم وفي الوسط كتب اسم الرئيس والقاعة فارغة ولا أحد، وجلت بين المقاعد متخطيا أسلاك التسجيل ومكبرات الصوت وذهبت في اتجاه منصة الصحفيين الذين سوف يحضرون افتتاح المؤتمر وبقيت هناك شهرا أو عاما أتنقل بين القاعات والقاعة الكبرى ولاأحد ولما هممت بالخروج وجدت بالباب من قال لي أنت صحافي، المؤتمر مؤجل، ولكن كيف دخلت؟ هل أنت جاسوس؟ وقبلته على خديه قبلتين فابتسم وقال آه عرفت، وقبلني على خدي أربع قبلات وقلت له آه أنا أيضا عرفت، ورسم بيده حركات نحو جهات وأدارت بعض الدوائر وهو يرسمها بتلك الحركات من يديه ثم رسم حركة قيادة سيارة أو شاحنة وهو يحرك المقود بيده ولطم يدا بيد فقلت له آه عرفت وأطلق من سباته عدة طلقات فقلت له آه عرفت وقبلني على خدي أربع قبلات ورافقني بخطى مؤدبة وهو يوميء لي أن أسبقه وهو يبتسم وعند باب المغارة شيعني بالابتسام وتراجع نحو ورائه فخرجت ووجدت البحر ورائي والبحر أمامي وسرت في مابين البين.

دخلت المغارة الخامسة وكان ثمة باب يؤدي إلى باب، وذلك الباب هو الآخر يؤدي إلى باب والأبواب أحدها ينفتح من تلقاء ذاته. والآخر يحتاج إلى د فع دفتيه والثالث لابد من ركله وافتراعه فانفتح لي باب ودفعت دفتي باب وافترعت بابا فظهر أمامي كل أبطال روايتي التي لم أكتبها بعد، يجلسون في صالة كبيرة على كراسي وأمامهم موائد صغيرة عليها صحون بها رؤوس وأعمدة فقرية لأسماك مأكولة. استداروا نحوي وقال لي أحدهم كيف

عرفت الباب؟ ونهض أحد الأدباء المعروفين، الذي تطالعنا صورته وكتاباته على أنهر الجرائد والمجلات من حين لآخر وحياني بحركة من يده، وقال لهم الصاحب، أو لنقل صاحب الصاحب، فتضاحكوا وقال لي هذا عاشق ولهان يحب أميرة بلاد الوندريز، ومد لي العاشق يده بالتحية، وهذا مدير بنك سابق اختلس الأموال وتباقى به الزمان، ولم يمد مدير البنك يده لمصافحتي، فقد كان جسده يرتعش، ولما وصلته الكأس التي كانت تدور في تلك اللحظة فقد أغمض عينيه وكرعها دفعة واحدة ثم سلمها فارغة للساقي الذي ملأها وقدمها لمن يجلس بجواره، وقال لي وهذا شمعون، بوحصيرة، ولد الليخ، يهودي ممتاز، وسلم علي شمعون وهو يتَملظ، وهذا امرأته تخونه، وهو لايعرف مع من، ليس مع أي واحد منا هنا على كل حال، وهو واثق من هذه المسألة، ولكنني أسعى إلى أن أجعله يعيد النظر في ثقته العمياء هذه، وكوى الرجل عنقه وأسقط رأسه على كتفه ولم ينظر إلي، وهذا خوليو، انظر كم هي صلعته تمتد إلى قفاه، ولم يبال خوليو بوجودي، وهذا الكولونيل ماجور، فاكتفى الكولونيل بابتسامة فيها حياء لاعلاقة لها بالعسكر، وهذا ربيع، أكبر مافيو في طنجة، وأدى ربيع التحية العسكرية، وهو يضحك، ولم يكمل الدورة وقال لي صافي، هادو الحوت. وقدم لي مقعدا وسط الجلوس فجلست وانتبهت إلى وجود صناديق الخمرة من زاوية وإلى وجود قلاي السمك في الزاوية المقابلة لها وهو يعد مايقليه في الصحون ويضعه على الموائد الصغيرة. وأخذ كل يبوح ويحكي ويسرد قصصا من حياته وآلامه وتباريحه ويستهيم ويشير إلى البعيد

ويذكر أيام طفولته ويشتم ويغازل ويسافر في المدن ويعود إلى ميناء طنجة وشوارعها وأعراسها ومناحاتها ويفرح ويبكي ويتوجع ويحلم ولما تصله الكأس التي تدور يكرعها دفعة واحدة وعندما يصل صحن السمك يلتقط منه واحدة ويأكل منها ويضع الرأس والعمود الفقري على جانب الصحن ولما وصلتني الكأس قال لي ذلك الأديب المعروف هؤلاء هم شخصيات روايتي القادمة، ربما بعضهم، أو أحدهم، وهم جميعا يقدمون لي رشوات لطيفة لكي أفضل وأنا أختار، أحيانا أعقد لهم مباريات في فن الحكي لكي أختار، ولكن هؤلاء ثرثارون سفلة، لاقيمة لحياتهم لأنها لاتغري بأية خصوصية، عشاق أو مخدوعون في زوجاتهم أو قتلة، تجار مخدرات أو حالمون واهمون، ملائكة شياطين أو شياطين ملائكة، وهكذا كل حال كل البشر، في كل الدنيا، وقلت له ربما هم أبطال رواية لم أكتبها بعد، فاغتاظ الكاتب المعروف وهب واقفا وقال لي قدمناك للناس على أنك الصاحب، أو صاحب الصاحب، لا الكاتب، أأنت أيها الدعي ستكتب؟ اخرج، وأخرجني من تلك المغارة في اللحظة التي وصل فيها دوري إلى الكأس، وفي اللحظة نفسها التي يقدم لي فيها جاري في المجلس سيجارة رفيعة.

دخلت المغارة السادسة وعند خطو أول على الباب استبد بي بكاء حارق وجلست على ركبتي واستسلمت للدمع وما كان أمامي سوى الظلام والماء وفجأة وجدت أمامي رجلا يشبهني هو الآخر يجثو على ركبتيه ويبكي بكاءه الحارق، وكأنه أنا أو كأني هو، والتقى ناظرنا فصرت كأني أنظر إلى نفسي في مرآة ولكنه قال لي وهو يجهش كذلك أقف على قبر ساميا، أما ضريح الأم

المتحدة، ومزار الجامعة العربية، فلا يأتي إليهما أحد غير الموظفين. وضحك وضحكت، وغدونا طائرين فطرنا وخرجنا من تلك المغارة.

دخلت المغارة السابعة ووجدت السي المختار يعطيني ظهره ويصلي ركعات وسجدات لانهاية لها وبقيت أنظر إلى ورائه وهو يصلي، يسجد ويركع في ظلام وماء، وكان نور خارق يأتي من جهة لاجهة لها يضيء لي أن أراه، فخجلت من ذلك الضوء ووقفت مكبرا ومتشهدا وقرأت الفاتحة وركعت وسجدت محاولا أن أجعل حركاتي تلحق بحركاته لكي يصير إماما لصلاتي ولكنه كان مرة يطأطئ فيخدعني وأنا أسرع وحالما أتباطأ يسرع ويجعلني أسجد قبله حتى أدركت أنه لايؤم بأحد ولايشعر بوجودي فسجدت وسلمت وختمت الصلاة بالدعاء لي وللصاحب فاستدار السي المختار نحوي وقال لي اخرج من هنا ولو لم تكن أختي هي التي ولدتك دعوت الله ليرسل طيرا أبابيل ترمي بحجارة من سجيل وقلت حتى التوبة غير مقبولة في المغارة وفي طنجة كلها فما التوبة وما الأخطاء وما الذنب الذي ارتكبته وظل يلاحقني به السي المختار وماهذه المغارة وما أنا وماالريح والجهة والحرب وما كل هذا السكون؟ وضربتني ركلة من الخلف أخرجتني من المغارة فخرجت.



عن المؤلف

* كتب الرواية والقصة القصيرة وفي النقد الأدبي والمسرحية، كما كتب قصص الأطفال.

* دخلت أعماله بعض أنطولوجيات حول الأدب المغربي.

* ترجمت بعض أعماله إلى الفرنسية والإسبانية والهولاندية والفلامانية والإنجليزية.

* حائز على جائزة المغرب للكتاب (1997)

* **من أعماله المنشورة :**

ـ في الدراسة الأدبية :

السرد في روايات محمد زفزاف

ـ في القصة القصيرة :

1) أوصال الشجر المقطوعة.

2) يتعرى القلب.

ـ في الرواية :

1) أيام الرماد.

2) مغارات

ـ في المسرح :

ـ تحفة النظار.

* **تصدر له :** زهرة الآس (رواية في ثلاثة أجزاء)، كائنات محتملة (رواية)، مجموعة كتب للأطفال.

صدر عن منشورات الزمن

I ـ سلسلة كتاب الجيب :

- الكتاب 1/ أبريل1999

عبد الله ابراهيم : ثورة العقل

- الكتاب 2 / مايو 1999

عبد الإله بلقزيز : العنق والديمقراطية

- الكتاب 3 / يونيو 1999

محمد ضريف : الحركة الإسلامية : النشأة والتطور

- الكتاب 4/ يوليوز 1999

محمد سبيلا : المغرب في مواجهة الحداثة

- الكتاب 5 / غشت 1999

عبد الكريم برشيد : المؤذنون في مالطة

- الكتاب 6 / سبتمبر 1999

حسن أوريد : الإسلام والغرب والعولمة

- الكتاب 7 / أكتوبر 1999

عبد الواحد الناصر : حرب كوسوفو : الوجه الآخر للعولمة

- الكتاب 8/نوفمبر1999

عبد السلام حيمر : مسارات التحول السوسيولوجي في المغرب

● الكتاب 9/دسمنبر 1999

أحمد الريسوني : الفكر المقاصدي : قواعده وفوائده

● الكتاب 10/ يناير 2000

ادريس كثير ـ عز الدين الخطابي : أسئلة الفلسفة المغربية

● الكتاب 11/ فبراير 2000

ادريس الخرشاف ـ المعرفة الإسلامية والعولمة، أي آفاق ؟

● الكتاب 12/مارس 2000

سعيد يقطين : الأدب والمؤسسة

● الكتاب 13/ أبريل 2000

طه عبد الرحمن : حوارات من أجل المستقبل

● الكتاب 14/ماي 2000

محمد شقرون : الكتابة والسلطة والحداثة

● الكتاب 15 / يونيو 2000

أفاية نور الدين : أسئلة النهضة في المغرب

● الكتاب 16 /يوليوز 2000

محمد أسليم : الإسلام والسحر

● الكتاب 17/ غشت 2000

عبد الإله بلقزيز : "حزب الله" اللبناني

II ـ روايات الزمن :

● الرواية 1/ مارس 2000

الطاهر وطار : الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي

في الأكشاك...

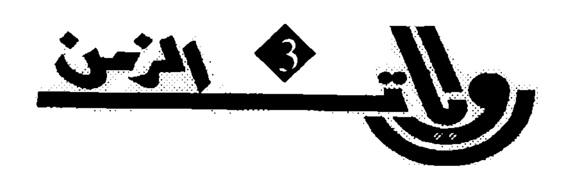


روايات الزمن

الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي

الطاهر وطار

منشورات جريدة الزمن



الرواية القادمة

قطار الصعيد

للروائي المصري الكبير

يوسف القعيد



ضحكة زرقاء


محمد عز الدين التازي

« ... في تجربة التازي الروائية يتداخل الواقع والحلم، والعقل والوهم، والتقرير والتخييل. فلا تبدو المسافة واضحة بينهما، ويظل الواقع الذي يحاول الإمساك به وتجسيده أعقد من أن يؤطره العقل أو تلمسه التجربة. لذلك ينفذ التازي إلى أعماق الذات "الواقعية" فيقترب من نبضها وهي تتلبس أشكالا وأنماطا تبدو لنا "لاواقعية"، فيحصل ذلك التداخل الذي أومأنا إليه ؛ وينتج عن ذلك استعصاء الإحاطة بملامح " الواقع" الذي ترصده التجربة الروائية. وهذا هو مصدر غنى وعمق الطريق الذي يسلكه التازي في النفاذ إلى أعماق التجربة الحياتية، وسرّ صعوبة النهج الذي يتبعه الشكل السردي الذي يختطه الروائي من منظور القارئ المتعجل.
لننصت إلى رنّة الـ "ضحكة" الـ "زرقاء" ! ... ولنكتشف طريقة التازي في الإبداع والتخييل!... »

سعيد يقطين




15 د

لوحة الغلاف : الفنان التشكيلي المغربي بن يسف